أبادماك

مجموعة قصصية

مروج سمير

الكاتبة: مروج سمير

تدقيق لغوي: حنان حسن مظلوم

الإخراج الفني: ضياء فريد

تصميم غلاف: محمد محسن

رقم الإيداع: ٢٠١٩/٢٣١٦٣

الترقيم الدولي: ٣-٣٤-٦٦٨٩-٩٧٧-٩٧٨

كاريزما للنشر والتوزيع

9 شارع مسجد المغفرة المتفرع من شارع العشرين
بجوارمدارس حسام الدين الخاصة فيصل الجيزة.

موبايل : 01126026691 01061813345

01009823984

إهداء

١. إلى أمي..طُلِبَ مني أن أكتب لكِ إهداء.. فسألتهم إن كان بإمكانهم أن توضع الروح في كتاب؟! نفوا ذلك فعُدت مخذولة.. أبحث واتعثر بين الحروف والكلمات.. عن إهداءٍ، أعلم يقينًا أن أي كلمات لن توفيكِ قدركِ يا سيدة القلب.. والأرض والسماء.

٢. إلى أبي الراحل.. أعلم أنكَ فخورٌ بي..تمنيتُ لو كنتَ شاهدًا معي هذه اللحظات.

٣. إلى الحب الذي بحثتُ عنه طويلًا فروى عروقي وأكَّدلي أن دمي لم يكن يومًا ماء.. أحبك يا أنا.

٤. إلى كل من أهداني إحساسًا «دافئًا» ككوب شاي في الشتاء.. وإلى كل من أهداني قسوة وغصة وخذلان.. صنعتم الفارق فِي.. فشكرًا لكم.

٥. إلى التى حاربت وعاركت.. إلى المثابرة التى تورطت حد الألم.. وانتصرت حد الهيام.. إلى الثابتة معي بلا ريب أو اهتزاز..إلى مروج.

نكهة القهوة

جلستُ على كرسي أتأمل من النافذة، كنت متقلِّبة المِزاج، وأعاني من الصداع، نهضت لأحضر فنجان قهوتي على مهلٍ، فكما قال (محمود درويش): «القهوة، لمن أدمنها مثلي هي مفتاحُ النهار، القهوة، لمن يعرفها مثلي؛ هي أن تصنعها بيديك، لا أن تأتيك على طبق» أحب أشعار هذا العملاق واحترامه لنكهة القهوة وفنجانها، حضَّرتها على مهلٍ ككل يوم، ثم أخذتها إلى حيث جلستي والنافذة.

ارتشفتُ أوَّلها بهدوءٍ، وأغمضتُ عيني ونظرت أمامي، رأيتُ حديقة البيت الصغيرة ومِن أمامها الشارع الهادئ وسيارتي وبعض المارَّة، شابًّا يَسِير على عَجلٍ، وامرأة تُمسِك في يدها بكيس وبيدها الأخرى تتشبث بصغيرها البالغ من العمر خمس أو ست سنوات، وعجوزًا يتأنَّى الخطوات على الرصيف الآخر يخشى السقوط على الرصيف المكسور وهو يسير، وفجأة تمتمتُ بيني وبين نفسي:

ـ كم تمنيت لو تُسمَّى باسْمِكَ كل الأشياء، فلا أنطق غيره، ولا أرى غيره ولا أسمع غيره!!

ـ أجل... ماذا كان سيحدث لو سُمِّيَتْ باسْمِكَ.. فرأيته في كل مكان؟!

لَيته على أشجار الحديقة.. على بتلات الأزهار.. خاصة الياسمين.. فأنت تحب الياسمين جدًا.. ليته على لوحات الإعلانات والمباني، وأسماء الشوارع والمدارس، وحتى على المطاعم والمكتبات.. حقا! لمَ لا يكون حتى اسم طعام!!

أجل، صنفًا مكوناته فريدة، يُصنع بتميز، ويُسمى باسْمِكَ.. فيَعرفه العالَم، وينتشر بين الحضارات المختلفة كما انتشرت بيننا أصناف المأكولات الإيطالية.. كالبيتزا، واليابانية.. كالسوشي، وغيرها الكثير، وباتت في كل بلاد العالم.

أو ربما لو كان على أصناف الفاكهة والخضروات، أو ربما على المجوهرات العريقة فتزداد جمالًا وبهاءً.

وبالتأكيد، لو كان على السيارات ـ مثلًا ـ لزادت مبيعاتها، وحتى نُفرِّق بين أنواعها نضِيف بعد الاسْمِ الأرقام، الأول.. الثاني.. الثالث.. وهكذا.

ليصبح كل شيءٍ حولي يدور في فلك وجودك، ليصبح كل شيءٍ حولي لك وبك ومنك ومعك.

خاطبتُ نفسي:

ـ ماهذة الأمنية؟ أوهذا الحلم الجميل؟! هل استيقظت به؟ أم غزا تفكيري الآن؟ ربما هو وهم جميل.. لكنه سرى بدفءٍ

في أوصالي.. وشعرت بحاجتي لاحتضانك.. للمسةٍ منك.. لنظرةٍ من عينيك.. لمْ أكن يومًا ضعيفة وهشة كما أنا معك.. وكأنك أصبحت تملك لي ترياق الحياة.. وما عدت أنا بعدك كما كنت قبلك.. بِتُّ أقتات منك الزاد والمراد..ولا أعلم ماهية هذا الشوق الدائم، وكيف أحيا به؟ كيف لابتسامةٍ منك صغيرة أنْ تفك شفرة حزني مهما كان؟ وإذا ما أغضبتني بنظرةٍ صغيرة من عينيك تذيبني فأرضخ وكلي استسلام.. أي هبة عظيمة من الله هذا الحب؟ أي سطوة؟ أليس هذا الحب سطوة وسلطة وُضعت بين يديك؟ فكيف يخلق الله ـ تعالى ـ فينا هكذا شعور وإحساس، ويضعه في يد كائن واحد؟!

نظرتُ أمامي للفنجان.. تأملته.. فرأيت وجهك المبتسم كما أراه كل صباحٍ .. ابتسمت، وأخذت نفسًا عميقًا، ونهضت من مكاني، وبدأت أتذكر ما ورائي اليوم من مهام، ثم انتبهت على صوت جرس باب ينطلق بشكلٍ متكرر.. فزعت إلى الباب.. وفتحته سريعًا.. فوجدتك أمامي.. بقامتك القصيرة، وثيابك المتسخة، وشعرك المُجعد، وحقيبتك التي أصابها الإنهاك مما تَحمِله.. حتى أنَّ بعضها مفتوح، وبعضها مغلق..ليس كل هذا هو المهم.. نظرة عينيك هي الأهم.. نظرة دفءٍ وحنان، وأنت تقول:

- أين أنتِ يا أمِّي؟ قَرعت الباب كثيرًا، وضعت يدي على رأسك، وأنا أنظُر إليك في لهفةٍ:
- حبيبي، اعذرني، لَمْ أنتبه إلّا الآن؟

دخل «كريم» إلى المنزل، ووضع الحقيبة على الكرسي، ثم التفت إليَّ مُجددًا، قائلًا:

- لا عليكِ يا أمي.

ابتسمْتُ في سعادةٍ وأنا أراك مبتسمًا لي، كما كنت أمامي في الفنجان.

السقوط

دفعتَني من على شفا حفرةٍ في غياهب الظلمات.. بعيدًا عنك.. دفعتَني متعمدًا لأسقط.. لأهوى وأضيع.. لا، إياك أنْ ترسم عليَّ دور البريء.. فقد كنت تعلَم ما تفعل، ولمْ يهزّك شيء.. وقفت تتابع السقوط، وتَسمع آثار الصراخ مني وأنا أضيع.. بابْتِسامَتِكَ الصفراء.

رأيتَ فمي المفتوح، وجحوظ عيني.. يداي اللتان تتحركان في كل اتجاهٍ.. وأنا أغِيب وأغِيب بعيدًا، وأردد:

ـ لماذا؟ لماذا؟ أهكذا تكون النهايات؟!

لحظتها، قَطَعْتَ عني المُحال.. وتركتني في حسرةٍ.. فقد كان سقوطي مُدوّيًا.. تهاويت أمامك شبحًا بعينين مكسورتين وشَعْر منكوش.. وإذا بي في حفرةٍ، وبجانبي أكوام من الذكريات.. حرَّكتُ رأسي حركةً خفيفة.. الألم كان شديدًا حتى دمعتْ منه عيناي.. فحرَّكتَ أنتَ قدمك لتثير الرمال.. جئت بجبروت تغطِّيها.. تخفيها وتدفنها.. وتدفنني.. فعلتَ كل ذلك، وكنتَ تُريد مني فقط الثبات في استقبال الأقدار، وقبول كل الأعذار.. لطالما رددتَ على مسامعي وكأنَّه شيءٌ مُعتاد:

ـ هذا ما اختارته لنا الأيام وليس بيدي شيء.

أدرت ظهرك، وابتعدت خطوات.. شاهدتُ أقدامك ترحَل، وفي كل خُطوة كنت تطأ الأرض، تعلِّق بشرِّك حذائك شيئًا من الذكريات.. سقطت دمعتان أحرقت وجنتي.. وأنت تُكمل مسيرتك، وتبتعد، وتَرحل بكل برودٍ.. ثم توقفت لتتدثر بعباءتك السوداء، وارتديت قناعك القديم..

ـ آاااه لم أره منذ زمنٍ بعيد.. متى كان ذلك؟ متى؟

تذكَّرت، يوم تشاجرت مع الأحباب، لمَّا نصحوني قائلين: هذا لا يَصلُح لقلبكِ.. هو أغلى مِن أنْ يكون لمثله.

ـ يا لمرارة الغباء.. كمْ كنت ساذجةً، حتى لا أفهم وأستمر!

سقطت دمعتان أشد حرارة من سابقتيها..

ـ ماذا يفيد الندم الآن؟

لا صوت يَخرُج مني.. مع كل تلك الأوجاع..

ـ لا لنْ أقبل.. لن أستمر بهذا العذاب..

أغمضت عيني.. وغفرت لنفسي خطيئتك..

ـ نعم، أخطأت يوم اخترتك.. وغفرت أيضًا لقلبي المسكين.. غفرت له رغم كمّ الضياع.

مددتُ يدي اليُمنى.. حاولت أنْ أمسك بأي شيءٍ.. حرَّكتها، وشددت أصابعي.. رغم الألم.. أمسكت حجارةً صلبة.. تشبَّثت بها، ثم نهضت تاركةً حضن الأحزان..

نهضت بكل ما أوتيت من وجعٍ.. نهضت أقاوم الصراخ.. وأنا أردد:

ـ ما كل هذا الألم؟

ما عاد يفيدني شيء.. ثبَّتُّ أقدامي بقوة في الأرض بالتدريج.. والأوجاع تزداد مني، ومعها الدماء.. منبعها صدري المُمزَّق.. وكلي إنصات، وتكرار لقول عقلي:

ـ «مثلي لا تضنيه أحزان وأشباح».

فتحتُ عيني المُتورِّمة بقوة.. ومسحت الدماء عن وجهي.. وأدرت نظري في المكان.. أدركته.. وعرفت بُعد المسافات.. وبدأت التحرك..

نعم، اهتززتُ كثيرًا، ولَكِنِّي لمْ أتوقف، مشيتُ خطوة.. خطوة.. تتبعها خطوات.. وكلما وطئتُ الذكريات بقدميّ.. كلما تشبتُ أكثر، وازدادت مني الخطوات، وابتعدتُ عن غياهب السقوط والظلمات.. واصلتُ السير، ولمْ ألتفت أبدًا خلفي.. لمْ أكن لأرى المتروك أرضًا هناك.. قلبي المسكين.

النظارة الشمسية

خرجَ (حسن) منَ البابِ يُهرول مُسرعًا، وطرَقَ بابَ جَاره الأستاذ (سيِّد)، فقد اعْتادَا أَن يَذْهبا معًا لِصلاة الجُمعَة كُل أُسبوع، وتَبقَّى على الأذَان مَا يقاربُ النِّصف ساعة، المسكين العجوز رحل عنه أَبناؤه الثلاث، كلٌّ منهم في بلدٍ، وتركوه وزوجته يصارعان فيما تبقَّى لهما من الحياة، ومنذ رحلتْ زوجته قبل شهور، وهو يرعاه، يهتم به، يمر عليه كل يومٍ، بعد عودته من العمل؛ ليرى إنْ كان يحتاج لأمرٍ أو طلبٍ.

فتح (سيد) الباب، وهو يبتسم قائلًا:

ـ أهلًا يا ولدي، أنا جاهز.

رد عليه (حسن) :

ـ جمعتك طيبة يا عمّاه، هيّا بنا حتى لا نتأخر عن الصلاة.

أقفل العجوز الباب، وهو يَحمِل في يده الكرسي الصغير الذي يصلي عليه، فأسرع (حسن) يَحمله عنه، ويمد له يده الأخرى حتى يستند عليها.

في الحقيقة.. (حسن) شاب مغترب، مجتهد، قادم من الغربية للقاهرة، طلبًا للعلم والرزق، يعمل في شركة صغيرة في قسم الحسابات، ويحضر في ذات الوقت الدراسات العُليا بالجامعة، ومنذ استقر في شقته الإيجار، أصبح يرى في (سيد) أباه الذي حُرم منه في طفولته، فيحنو عليه ويرعاه، وكأنه يعوّض نفسه هذا الشكل من العطاء، اتجها إلى سيارة (حسن) الصغيرة من نوع «الفيات»، قد تبدو لمن يراها متهالكة، أكلها الصدأ، ولكنها في نظره عزيزة دائمًا تفي بالغرض، ركبا في السيارة، وانطلقا إلى «الجامع الكبير»، هذا اسمه، أكبر الجوامع في المنطقة السكنية، جامع ضخم يأتي الناس إليه من كل حدبٍ وصوبٍ، وبالذات في المواسم والمناسبات الدينية وأهمَّها الجمعة، وصلَا إلى محيط الجامع، فركن (حسن) سيارته، ونزل يساعد عمه العجوز حتى يلحقا بالصلاة، صعدا درجات الجامع، وفي الصحن أدار (حسن) عينيه حتى ارتأى مكانًا مناسبًا، وضع فيه الكرسي للعجوز بجوار عمود من أعمدة المسجد، وأجلسه عليه قائلًا:

ـ هنا.. تفضَّل يا عمي.

ابتسم له (سيد) موافقًا، وهو يلهث من صعود درجات السلم، فصحن الجامع على ارتفاع، ما أنْ هدأ حتى أشار لـ(حسن) أنْ يُحضِر له نسخة من كتاب الله ـ تعالى ـ، أحضرها (حسن) وجلس كلاهما يقرأ القرآن حتى أذّن المؤذن، ثم أقام الإمام الصلاة، ووقف على المنبر يلقي الخُطبة الأولى على المصلين، كان (حسن) يتصبب عرقًا، فالجو شديد الحرارة، والمسجد بمساحته الكبيرة غير مكيَّف، وأعداد المصلين في ازديادٍ، أتمّ الإمام الخطبة الأولى، والتي تناول فيها أخلاق الإسلام، التي

يجب أنْ يتحلى بها المسلم في معاملاته المجتمعية، ثم خطب الثانية، وكانت عن أوضاع المسلمين في كل البلاد، كانتا خطبتين ثريتين؛ لمَن ألقى على قلبه السمع، فلما أتمهما، دعا للمسلمين في كل مكانٍ ونادى في جموع المصلين للصلاة، نهض (حسن) وهو يمسح عن جبينه قطرات العرق، وبدأ في التحرك انتظامًا للصفوف، واستقر في الصف الثالث خلف الإمام، فلما انتظم واقفًا، ألقى نظرةً على عمه العجوز فوجده مستقرًا على كرسيه، أومأ له أنِ اطمئن، اعتدل (حسن) في وقفته، واستشعر أنه أمام رب كبير وعظيم، وركز عينيه على موضع السجود استعدادًا للصلاة، كبَّر الإمام وبدأ الصلاة، في أول ركعة قرأ ما تيسَّر له من سورة الأعلى، فلما قضاها رفع حسن بصره استعدادًا للركوع، فوقَع بصره على شيءٍ غير معتاد.. شيء لفَت انتباهه، لقد شاهد أحد المُصلين في الصف الثاني يترنَّح وكأنه يفقد الاتِّزَانَ، ثم في ثانية سقط على الأرض، أصاب (حسن) الهلع والخوف:

ـ ما هذا؟

لمْ يتردد أبدًا، وقطَع الصلاة، وأخذ بضع خطوات ليطمئن على الرجل المُلقَى بين المصلين.. فإذا به شاب في مثل سنه سقط على جنبه الأيمن فاقدًا للوعي، أخذ يحرِّك يديه ووجهه يمنيًا ويسارًا، فلمْ يجِد استجابة، تساقطت مِن (حسن) قطرات العرق، وهو يلتفت حوله ليدرك المكان والحدث، إنَّه في المسجد ووسط المصلين.. ما هذا؟ ما الَّذِي يراه؟ لمْ يقطَع أحد صلاته سوى الرجل الذي سقط عليه الشاب.. ماهذا؟ أخذ ينادي بصوتٍ مرتفع:

ـ أيها الناس.. طبيبًا.. إسعافًا.

لمْ يُجِبه أحد... فالجميع يصلي

كرر القول وهو يحاول إسعاف الشاب الملقَى على الأرض، فردَّ عليه هذه المرة الرجل الذي بجواره في فزعٍ:

ـ أنا لستُ طبيبًا.

نظر إليه (حسن) في ذهول، ثم دار ببصره بين الجموع.. الكل يستكمل الصلاة.. رغم صوته العالي وصداه الذي سرى في المكان.. لمْ يَقطَع أحدًا صلاته، ولا حتى الإمام.. أدار بصره للشاب فوجده أحمر كَالمُخْتَنِق.. رفع نظارة الشاب الشمسية عن رأسه، وأماله قليلًا، وحاول إسعافه.. لكن لا شيء.. ثم جاءه الخاطر فجأة.. فأسرع يركض خارجًا من المسجد.. ارتدى حذاءه وهو يتذكر أنَّ مشفًى عريق الاسْم والشهرة يقبع في ناصية الشارع، وبالتأكيد به إسعاف وأطباء.. ركض سَريعًا.. بسرعة لمْ يعهدها في نفسه.. ركض وكأنما شبحًا خلفه، والعرق يتصبب منه، وأنفاسه تكاد تنقطع.. لمْ يتوقف حتى وصل إلى مدخل الطوارئ فوجد به سيارتين للإسعاف.. حمد الله في جوفه، وأسرع للداخل فإذا بممرضٍ أمامه يَنظر له في هدوء، ويقول:

ـ نعم!

التقط (حسن) بضع أنفاسٍ، وهو يجيبه:

ـ شاب سقط منّا في الجامع أثناء الصلاة فاقدًا للوعي، لا أعلم ما به، وأنفاسه منقطعة.

رد عليه الممرض:

ـ ثم؟

دُهش (حسن) للحظةٍ، ولكنه استطرد:

ـ أريد طبيبًا ليراه.

قاطعه الممرض:

ـ لا يوجَد أحد الآن.

صرخ (حسن) في وجهه قائلًا:

ـ كيف هذا؟ أليس هذا قسم طوارئ؟! لا بد من طبيبٍ.

صمت الممرض فتصوَّر (حسن) أنَّه يَحمل له إجابة مختلفةً.. غير أنَّه أدرك غير ذلك، لمَّا سمع صوتًا نسائيًّا قادمًا من إحدى الأروقة يقول:

ـ لماذا تصرُخ وترفع صوتك، يا هذا؟

عاد (حسن) للصراخ غير مهتم بحديثها مردِّدًا:

ـ أريد طبيبًا.. في الجامع إنسان يموت.. هل تفهمين؟!

تطلعت إليه، وببرود أجابت:

ـ أحضِره هنا.

صرخ مجددًا، وهو مُنقطع الأنفاس:

ـ أين الأطباء؟ المسعفون؟

أجابت بسرعة:

ـ يصلُّون.

رمقها (حسن) بعينين ثاقبتين تطلِقان شَرار الغضب، وأسرع يغادر المشفى، يجرّ أذيال الخيبة، والتساؤلات تملأ رأسه:

ـ لمَ كلّ هؤلاء بهذَا البُرود؟ أنَا أُحدِّثهم عن حَياة إنسان.. اللحظةُ والثَّانيةُ تُحدثُ فرقًا.. تُرى كيف هو الآن؟ وماذَا حدَث لهُ في دَقَائق غيابي؟

هز رأسه وكأنَّه يطرد عنه كل هذا اللغط، وركض سريعًا للجامع وكله أمل أنْ يكون الحال قد تبدل.. غير أنَّه لمَّا وصل أصابه المشهد بالإحباط.

وصل وهو يلهث من شدة العطش وانقطاع الأنفاس، فوجد المسكين مُلقى على حاله كما تركه ولا فارق إلا أنَّ الصلاة قد انقضت، وانتشر المصلين في أرجاء المسجد.. وحوله بدلًا من واحد ثلاثة أشخاص فقط.. سأل أحدهم عن ما استجدّ فأجابه بارتباك:

ـ لقد أتيت مع صلاة الجنازة التي هناك، ووجدت هذا الشاب مُلقى، وليس معه غير هذا العجوز.. أنا لا أراه يتنفس.

تملَّك (حسن) الغضب وصرخ:

ـ ما بِكُم أيها الناس؟ ماذا حدث؟ رجل سقط بينكم فتتركوه حتى الآن؟! ألا يوجَد طبيب؟ ألا يوجَد طبيب؟!

ذرفت عيناه الدموع لما وقَع بصره على المسكين.. أمسك بكتفه فأصابت قلب (حسن) نغزة.. فقد أحس به أصلب مما تركه بقليل.. أيقن في جوفه أنَّه مات، لكن لن يسكُت.. ذهب للإمام وقال له بصيغة الأمر وهو يصرخ:

ـ اطلب من المصلِّين أي طبيبٍ يظهر؛ لقد سقط شاب بين المصلين..

لمْ ينتظر رده.. عاد وهو يسمع صوت الإمام في المُكبر ينادي على طبيب.. عاد أدراجه حيث الملقَى على سجاد الجامع فإذا برجل طيب الهيئة يجثو على ركبتيه أمامه، ويجري له بعض الإسعافات.. استمرت لدقائق ثم رفع رأسه، ونظر لـ(حسن)، وقال في أسى:

ـ لقد مات.

كان يحدِّثه، وهو يظن (حسنًا) قريب المتوفى.

صدمة.. أجل صدمة.. جلس (حسن) على الأرض بجوار الشاب، وبدأ ينظر إليه في حسرةٍ وألم والدموع تنهمر من عينيه.. راح يحدِّث نفسه:

ـ ما هذا الذي حدث؟ كيف انتهى هذا؟ بل كيف أصبح الناس بهذا السوء؟

أخذ يتطلع مِن وراء الدموع للناس.. للوجوه.. ويتذكر كلمات الإمام في الخُطبة عن خلق الإسلام، والأخلاق التي غابت عنا.. هل حقًا باتت سرابًا؟ ما فائدة الصلاة أو القرآن إنْ لمْ تؤيدهما الأفعال؟ كيف قيَّم أولئك الناس الموقف؟ هل إتمام الصلاة كفرضٍ أهم مِن إنقاذ حياة إنسان؟ ثم أين أولئك القابعون في المشفى؟ ما فائدتهم إنْ لمْ يكونوا على أتمّ استعدادٍ لمثل هذه اللحظات؟

كانت الدموع تنهمر كما الأسئلة على رأسه وهو يحرِّك عينيه في ذهول وعدم إدراك: أحقًّا أصبحنا في غابة؟ كلٌّ يُعنَى بنفسه وكفى؟ جموع المصلين كيف لمْ يهبّوا لنداء المسكين؟ ما هذا المجتمع الذي نحيا فيه؟ أأصبح فينا الكلام هو كل شيء، ولا مجال للأفعال؟! هذا المسكين.. ماذا سيقول لربه؟ أيُشهِده على بضع من خلقه لمْ يعودوا كما خلقهم بشرًا ، تركوه ملقَى على الأرض بلا إسعافٍ؟

ربتت يدٌ على كتفه فالتفت فإذا بعمه العجوز، نظر إليه نظرة حنان، وقال له:

ـ هيّا يا بُني لنعود للدار.

أومأ (حسن) بعينيه لعمه، ونهض من مكانه، وهو يتطلع في نظرة أخيرة على الشاب الفقيد.. ثم انتبه.. فنظارته الشمسية في يده منذ رفعها من على وجهه.. ذهبت معه للمشفى، وعادت معه.. تركها بجواره، وتحرك مع عمه خارجًا من المسجد.. ولكن بأسئلةٍ، وقلب ليس كما كان.

اللوحة

وقفتَ أمام إحدى اللوحات تتأملها في مللٍ فقد حضرت مع صديقتها (سهام) المعرض مرغمةً، هاتفتها صباحًا قائلةً:

- تعالي معي معرض (خالد) ابْن خالتي للوحات حتى لا أكون وحيدة، هيا اخرجي يا (ريم) من قوقعة انعزالك.

(سهام) صديقتها المقربة، تعلم هي كم تحب المعارض الفنيه التشكيلية، فوافقت وحضرت معها على مضضٍ، نظرت بتمعن في اللوحة.. كانت ملفتة للعين في مجملها، أعجبتهاً رسومات الطبيعة وما تضمه من نباتات وزهور، اللوحة رسم تجريدي للنباتات بخامة الباستيل، صاخبة ومثيرة في ألوانها، خليط بين الألوان النارية أكثرها دفئًا.. اللون البرتقالي، تأملتها وسرحت فيها وفي صاحبها وتساءلت كيف كان يرسمها؟ وفيمَ كان يفكر؟

تخيلته وهو يرتشف من فنجان قهوته ثم يمسك الفرشاة ليصنع هذا الجمال، تخيلته وهو منهمك في رسم الخطوط والتعامل مع الزيت والأكريليك بدقةٍ عاليةٍ!

سرحت كثيرًا في ألوانها، وهي تحدِّث نفسها:

ـ كيف لأحدهم أنْ يمتلك القدرة على صنع الشيء من العدم؟!

هي لمْ تكن لوحة من البداية! كانت أدوات في يدي صاحبها، وبفكره وإبداعه استخدمها، ونسَّق بينها فخرجت في هذه الصورة!!

قاطع هدوئها شابين جاءا بجوارها لمشاهدة اللوحة، ودار بينهما هذا الحوار:

ـ الأول: جميلة يا محمد، أليس كذلك؟

ـ الثاني: لا أراها هكذا، فتنسيق حجم الزهور فيها لا يعجبني، أراها عادية.

ـ الأول: ولكن ألوانها خلّابة؛ ألمْ ترَ كيف صنع منها عاصفة هوجاء تحمل سيلًا من الألوان النارية؟!

ـ الثاني: عادية، أراها يا (سمير) عادية.

شردت في الحوار بينهما، كل منهم ينظر للشيء نفسه، ولكن كل عينٍ تراه باختلافٍ عن الأخرى!

وقد يحتمل رأي كل منهما الصواب، لمَ لا تكون هكذا كل الأمور؟!

أراها بطريقة وأسلوب، وغيري يختلف عني، أليس كلام كل منهما صوابًا؟

الأول يراها جميلة في ألوانها، خلابة، والثاني لا يعجبه تنسيق وحجم الزهور،هو لمْ يلتفت لجمال الألوان، شاهد فقط النقص فيها والعيوب، ورغم ذلك لمْ يخطئ، لأنَّه يبحث عن الجمال كما تراه عيناه.

تساءلتُ:

- ماذا لو أسقطت هذا المنظور على سَفر (أيمن) للعمل في الخارج؟ أليست أسبابه صوابًا؟ هو يريد لنا العيش الكريم، وعقد العمل ذاك فتح له أبوابًا في ظل ظروف صعبة، وحالة من الغلاء تمر بها البلاد.

أما هي، فقد رأت في ابتعاده عنها شقاءً، حتى بعد مرور ستة أشهر على سفره، لمْ تتكيف بعد على فكرة عدم وجوده بجوارها في أحداثها اليومية الصغيرة، أنْ تتصدَّر المشهد وتتعامل مع الأوضاع تحت كل الظروف، أن تفتح عينيها كل صباح فلا تراه، حتى أوقات الشِّجار والخِلاف تفتقدها، كان حاضرًا، أمَّا الآن فما عادت تشعر به كما كان، رغم المكالمات الكثيرة بينهما، إلّا أنَّها لا تشعر به، ضريبة الغربة والسفر تدفعها من مشاعرها وإحساسها وقلبها.

لكن.. لكن منطقه هو أيضًا حكيم، فالأسعار في ازدياد، والغلاء ينهش في الناس، وهو يخشى عليهما من مرارة الأيام، خاصة أنَّه لا شيء مضمون.

لمعت عيناها للحظة، وهي تربط كل ما سبق في ذهنها.. هي على صواب، وهو أيضًا على صواب!

واختلاف تنسيق الزهور لا يفسد جمال الألوان!

هزت رأسها وابتسمت، وكأنَّها موافقة على هذا الاسْتِنْتَاج، لمْ تعُد غاضبة منه؛ هو نظر للأمور بمنظورٍ، وهي رأتها بمنظورٍ آخر، وكلَاهما رأيه صواب، ابتسمت والتفتت تبحث عن (سهام) لتُخبِرها بهذا الاسْتِنْتَاجِ

الذي زَرع في قلبها الارتياح، خطَت مبتعدة لخطوات عن اللوحة، ثم وقفت فجأة، والتفتت لها، وابتسمت، وقالت بصوتٍ عالٍ :

ـ شكرًا لكِ يا (وشوشة الزهور).

ومَضتْ مبتعدة تبحث عن صديقتها.

أما اللوحة (وشوشة الزهور)، فظلت مكانها مشرقة وملفتة لكل الأنظار.

أبادماك

شك، وقلق، وعيون اصطبغت بالأحمر.. لمْ تذق طعم النوم.. فالسير بين كثبان الرمال شاق.. مُنهك.. أثقال تَحمِلها أقدامي أثناء خطواتي المستمرة.. جاءني صوت عميق ظننته لوهلة من جوفي:

ـ اقتربنا يا أستاذة.

مصدر الصوت شاب ثلاثيني، نوبي، جميل المَحيا، ابتسامته الصافية تَحكي عن أصله الطيب، (إسماعيل) دليلي ومُرافقي، الوقت يَمضي فقد سرنا لمسافة طويلة في الصحراء.. كم أنهكني التعب والإرهاق.. شعور مر.. ألَّا تتغير في عينيك الألوان!

ـ لا بد أنْ نسرع الخطى أكثر فالشمس بدأ يبرز ضيها في الأفق.

هكذا ردد (إسماعيل).

تحركتُ تَنْفِيذاً لطلبه فاصطدمتْ قدمي بصخرة لمْ أرها.. يا للألم.. صرختُ من شدته.. فضوء الكشاف لمْ يظهرها أمامي.. رددت على (إسماعيل) بنبرة متوترة:

ـ حاضر، سنسرع.

أومأ برأسه موافقًا، ثم نظر إلى حذائي يطمئن على إصابتي.. كاد أنْ يسألني لكنَّه فضَّل الصمت، مسحت حذائي بيدي، ونهضت مبتسمة.. لا بد من السير مجددًا، فالوقت يداهمنا فعلًا، عاد (إسماعيل) للحركة أمامي.. لا أعلم كيف اعتاد السير بهذا الثبات! ربما من التكرار.. أبناء الصحراء يحفظونها عن ظهر قلب، خطواتهم فيها بلا دليل أشبه بالسير في طريق مرصوف في وَضح النَّهار، ولكن هذه المسافات، أنا لا أصدِّق أني قطعتها، ١٧٠ كيلو مترًا شرق الخرطوم.. قطعت أنا و(إسماعيل) منها خمسة عشر كيلو مترًا سيرًا على الأقدام..لا أتذكر أنّي قطَعت مثلها مِن قَبْل.. فخورة بنفسي على هذا الاضطرار... كانت خيوط الشمس تنسِج في السماء مشهدًا أسطوريًا وسط سواد الظلام.. تتجلّى روح الخالق ـ تعالى ـ في مخلوقاته.. ماهذه الروعة! ما كل هذا البهاء والإبداع؟! سبحانك ربي.. ما أعظمك!!

ـ وصلنا اخيرًا.

صوت (إسماعيل) يقتحمني مرةً أخرى، نظرت له فوجدته مبتسمًا، كما كان طوال الرحلة، غير أنَّه يشير في ذات الوقت بيده.. وجَّهت بصري حيث أشار بيده اليُمنى فإذا بي أمامه.. على بُعد أمتارٍ قليلة.. أخيرًا وصلنا.. أخيرًا أنا أمامك.. مَعبد أبادماك.

المَعبد الأثري العتيق، ومن خلفه الشمس ترمي بضفائرها على حجارته الشامخة لآلاف السنين.. شهق بصري نزولًا على رغبة الجمال.. فسطوة التاريخ.. وعبق سحره الذي يملأ صحراء أرض الكوش.. أرض الفراعنة السُّود.. مشهد خلّاب قد لا يَتَسنَّى للكثير رؤياه.. ركضتُ بسرعة حتى وقفت أمامه.. فسَرَت قشعريرة في جسدي حتى العظام.. من فرط مارأيت.. فجدران المعبد منحوت عليها الإله (أبادماك) على هيئة أسد

بثلاثة رءوس وأربعة أذرع.. قالت كتب التاريخ التي اطلعت عليها أنَّ الإله الأسد المحارب (أبادماك) تجسيدًا للملك العظيم (نتاكاماني) زوج الملكة العظيمة (أمانى تاري) والتي هي ابنة الملكة العظيمة (أمانى شكتو).. عُرف عنه أنَّه محارب شرس وشجاع.. التجسيد بثلاثة رؤوس كنايةً عن إبصاره في كل الاتجاهات وإحاطته بكلِ ما يدور حوله، والأذرع المتعددة له ترمز إلى قوته وبطشه بالأعداء وتحكّمه وإدارته لكل ما في البلاد، عَبَده الكوشيون، والنوبيون، والمرويون، وحتى المصريين القدماء.

ـ هذه هي النقطة يا أستاذة.

للمرة الثالثة يوقظني صوته الأجش.. تطلعت له في دهشة مستغربة كلامه، ثم استوعبت مقصده.. فأجبته:

ـ حسنًا، هيا احفر يا (إسماعيل).

أخرج أدوات الحفر التي أحضرها معه.. الإزميل، والمجرفة، والجرافة، وجهازًا إلكترونيًّا لكشف مكونات التربة، وبدأ يحفر بجوار بوابة المعبد.

نظرتُ إلى قرص الشمس الذي بدا في السماء فانتابني القلق من الوقت الذي يداهمنا.. صرخت فيه:

ـ أسرع قليلًا، لا نملُك الوقت.

تجاهَل (إسماعيل) الرد عليّ، واستمر في الحفر بصمت، تابع لدقائق ثم توقف.

رأيت يده اليُمنى تمتد داخل الحفرة حتى غطت ذراعه كاملًا، ومال بجسده باتجاهها، ثم أخرج يده ببطءٍ وعلى وجهه ابتسامة سعادة لم أرها

منه منذ انطلقنا في رحلتنا هذه، أمعنت النظر لذراعه مرتقبة ما سيخرج به، فإذا به يُخْرِجُهَا.. إنَّها في يده.. المخطوطة في يده.

أسرعت وحملتها مثقَلة بذرات الرمال.. شعرت بحرارة وأنا ألمسها وأضمها بين أصابعي.. أزحت عنها الرمال برويَّة وحذر، ثم فتحتها وضوء عيني يعانق ما نُقش عليها بالهيروغليفية.

ـ التحية لك يا (أبادماك). «سيد تويلكيت» الملك العظيم (الأول) لأرض تانحسي، أسد الجنوب، ذو اليد الطولى... الملك العظيم الذي يستجيب لنداء من يدعوه، حامل السر.. ليس هناك سدود تقف أمامه، الذي يلفظ الأنفاس القائظة على أعدائه، وفي هذا تتجلى مقدرته ـ قوته الخاصة ـ التي تقضي على الأعداء بمساعدته... هو الذي يقضي على جميع الذين يُضمرون الخيانة والشر ضده، المعطي للعرش.. عرش السلطة لذلك الذي يطلبه وملك الغضب... العظيم بمظهره.

ابتسمت ثم أغلقتها، وقلت لـ(إسماعيل):

ـ حصلنا على مُبتغانا.

على قائمة الانتظار

جلست (لين) على طاولة الطعام، وأمامها طبق لذيذ تحبه كثيرًا من البطاطس المهروسة، وقطع الدجاج، وبعض السلطة الخضراء.. الجميع على الطاولة يتناولون الغداء.. والديها وشقيقتها، يتحاورون كالمعتاد عن ما دار في يومهم، ويطرَحون المشاكل التي واجهتهم.. كانت (آسيا) تتحدث عن مشكلة وَقَعتْ في الجامعة، وكيف احتدت وتصاعدت، وكان نقاش والديها هادئاً معها.. أمّا الصغيرة (لين) فكانت شاردة.. تَسمع أصواتهم غير منتبهة لفحوى الحديث.. شاردة في هاتفها وما شاهدته للتو حين فتحت تطبيق «الفيس بوك» فوجدت أمامها منشورات التذكير، تلك المنشورات التي استحدثها القائمون على التطبيق تتيح للمستخدم التجوُّل في الذكريات الخاصة به سواء منشوراته الشخصية أو التي بينه وبين أصدقائه منذ صُنع الحساب وحتى عام مضى، وكأنَّه يريد أنْ يعرِّفه على نفسه، ما كان فيه، وما أصبح عليه، اهتماماته، اللحظات الأكثر أهمية ومتعة له فيما مضى، كان القائمون على التطبيق بذكاء أنْ يصنعوا هذه الميزة، التي لها أثر سواء كان سلبيًا أو إيجابيًا على مزاج المستخدم،

فتجعله يرتبط بالتطبيق أكثر وأكثر، وهذا ما حدَث للصغيرة (لين)؛ فقد كان المنشور يتحدَّث عن معاني الصداقة والمودة جاء فيه:

- «سأحبك يا صديقتي، وكأنَّكِ قد وُضعت أمانة في عنقي، وكأنَّ أمك قد استودعتك في قلبي ومضت مطمئنة، وكأنَّ الكون كله قد أوصاني عليكِ، فإنْ زاركِ المرض فهو زارني، وإنْ أصابك ضيق فقلبي لأجلك يضيق، وإنْ عشْت البؤس فأنا معك سأعيش، وإنْ بكيت فأنا عينًا أخرى تبكي معكِ».

وضعته صديقتها (خديجة) في حسابها في ذات اليوم منذ عامين، تابعت (لين) بعينيها الكلمات والتعليقات، التي دارت بينها وبين صديقاتها، بعضهن علَّقت بفكاهة وضحك، والأخريات علَّقن بعبارات الدعاء بأنْ يحفظهما الله ـ تعالى ـ، والبعض اكتفى بإبداء الإعجاب به، وعلى قدر الابْتِسَامَةِ التي علَت شفتيها وهي تقرأ كل حرف إلّا أنَّ غصة كانت في قلبها، فـ(خديجة) لمْ تعُد مقربة إليها كما كانت، إثر مُشادة حدثت بينهما منذ شهور، صحيح أنَّهما تتقابلان ضِمن مجموعة الأصدقاء في المدرسة، ولكن منذ حدث ذلك الخلاف تكونت فجوة فما عادتا كما كانتا معًا.. أغلقت الهاتف ووضعته أمامها.. انتبهت لتصرفها والدتها، فقالت لها:

- ما بكِ يا ابنتي؟
- لا شيء يا أمي.
- كيف لا شيء؟ وجهك تغير عندما كنت تتصفحين الهاتف ثم أغلقتِه فجأة، أهناك أمر أزعجكِ؟
- لا عليكِ يا أمي.

قال لها الوالد، وقد انتبه للخَطْب:

ـ ما بكِ يا صغيرتي، ما الذي أزعجك؟

ـ لا شيء يا أبي.. منشور قديم شاهدتُه.

ردت عليها (آسيا):

ـ ما كان فيه عزيزتي؟

تطلَّعت (لين) في وجوههم الثلاث فوجدت الاهتمام والإصغاء، ابتسمت وكأنَّها تريد أنْ تَرمي بالحِمل عن قلبها وقالت:

ـ منشور قديم صنعته لي (خديجة) منذ عامين.

ابتسمت الأم في حنان، وهي تربت على كتفها، وتقول:

ـ إذن، هذا هو السبب!

نظر لها الوالد في هدوء، وقال:

ـ وهل ما أزعجك أنَّه من (خديجة)؟ أمْ أنَّه قديم؟

وجَّهت (لين) بصرها له، وقالت في حزم:

ـ أنَّه منها.

قاطعتها (آسيا):

ـ لو كان كذلك، كنت تجاهلتيه، ولكنَّكِ لا تُخبِرينا الحقيقة.

نظرت لها الصغيرة بتعجب، وقالت في غضب:

ـ وما هي الحقيقة، (آسيا)؟!

ـ الحقيقة أنَّك حزينة على ما آلت إليه الأمور بينكما، رغم عِشرة الأعوام الكثيرة، ودرجة تفاهمكما العالية، فـ(خديجة) صديقتك المقربة منذ كنت طفلة يا (لين).

ـ ثم؟

أجابت الأم هذه المرة:

- ثم لا تؤول الأمور في الصداقات العميقة إلى ما حدث بينكما حبيبتي، فمهما كان الخلاف يَبقى دائمًا هناك الأعمق، الذي يُعيد الأمور إلى نِصَابها.

قالت (لين):

- ولكنها تعنَّتت يا أمي، وأصرَّت على موقفها، ولمْ تعتذر عمَّا بدَر منها، وأنا لن أفعل ما رفضته هي.

رد الوالد:

- بل لمسة الحزن التي في عينيكِ تُجبِرك على فِعل ذلك يا ابنتي.
- ماذا تقول يا أبي؟!
- اسمعي يا صغيرتي، إنْ لمْ تفعلي، فسوف تهاجمك الذكريات واحدة تلو الأخرى، لتصطدم بحاجز البُعد بينكما، والمحصِّلة في النهاية خسارة لكليكما.
- ولمَ لا تفعل هي؟!
- التمسي لها العُذر، ففي بعض الأوقات نكابر ونختار الصمت على الاعتراف بالخطأ، فيزداد البُعد، ومِن بَعده الأوجاع، وتُقتل مشاعرنا البريئة بخنجرٍ مسموم اسمه القسوة.

أردفت الأم:

- وصديقتك فعلًا تحبك، وما بينكما لن يطاله النسيان بهذه السهولة.
- ماذا أفعل الآن؟

قالتها (لين) في شِتاتٍ، فأجابتها (آسيا):

- بَعد أنْ تُنهي الغداء أرسلي لها هذا المنشور، تذكِّريها به، ثم حدِّثيها في الهاتف، وأخبريها أنَّها تركت بغيابها فراغًا لمْ تملأه صديقة أخرى.

ابتسمت (لين) من الفكرة، وقالت:

- بل سأخْبرها أنَّ الحَنين همس في أذني، أنَّ ما بيننا لا ينتهي أبدًا بإذن الله.

قالت الأم:

- أجَل صغيرتي، بإذن الله.

قال الوالد:

- هيَّا أكملي غدائك الآن.

قالت (لين) وهي تنهض:

- شبعت يا أبي، سأذهب الآن.

ضحك الثلاثة من تصرُّفها السريع، وعلَت الابتسامات مَحياهم.

ثم قال الوالد:

- مَن كان يتخيل أنْ يُعيد «الفيس بوك» ما أفسدته تعابير الوجه والكلمات، صحيح بعض التكنولوجيا قد تكون وَبالًا، ولكن بعضها قد يكون نعمة، المهم.. هو حُسن الاستخدام.

السَّجين

بَعد انتهاء دوام العمل في السابعة، اتَّجه (سعد) و(مرزوق) وزميليهما (أحمد) و(نشأت) إلى سيارة أجرة، وركبوها مُتّجهين إلى أحد المطاعم لتناول الغداء، كان اتفاقًا مقيدًا بينهم منذ شهور..

ـ تناوُل الغداء ودخول السينما ـ لمْ تتحيّن لهم الفرصة لتنفيذه إلّا اليوم، فلمّا وصلوا إلى مكان المطعم ترجّلوا من السيارة، ثم أشعل (سعد) سيجارته ريثما ينهي (مرزوق) الحساب مع السائق، جلسوا على طاولتين متلاصقتين، وحضر النادل، وبدأوا في نقاش قائمة الطعام وطلب الغداء، بدا لـ(سعد) الحوار مع الرفيقين طيبًا، خاصة أنَّه كان خارج نطاق العمل، واتفقوا على أنْ يحضروا الفيلم الذي رشَّحه (مرزوق) فالفيلم عودة لنجم شباك كبير يحبه كثيرًا، وهذا فيلمه الأول بعد غياب لثلاثة أعوام، فلمّا أنهوا وليمة الغداء من الحمَام والمشويات، اتجهوا للسينما بجوار المطعم، وحجزوا تذاكر لحفلة العاشرة مساءً.

في قاعة السينما المُكتظة بالناس، جلس (سعد) على مقعده بجوار صديقه (مرزوق)، بدا على (مرزوق) الارْتِيَاحُ عندما أغلِقت الأنوار استعدادًا لبدء الفيلم.. كم يحب الهدوء!.. سار فاصل الإعلانات عن الأفلام القادمة سريعًا، ثم تلاه الفيلم ببدايته، بدا كل شيء هادئًا وجميلًا لـ(سعد) الذي تطلَّع بجواره من الجهة الأخرى، فوجد رجلًا وبجواره زوجته أو صديقته، لا يعلم، يضحكان، رمقهما بنظرة سريعة متسائلة فالمشاهد من الفيلم إثارة وحركة، ولا تستدعي منهما الضحك هكذا وبصوت عالٍ، عندما جاءه صوت (مرزوق):

ـ ما بك يا رفيق؟ تابِع الفيلم.. بماذا أنت منشغِل؟

نظر له (سعد) بنظرة تشير عليه بالهدوء، وأشار بيده حيث الرجل ورفيقته، نظر (مرزوق) حيث أشار صديقه، ابتسم لمَا رآه، وأشار بيده أنَّهما كالمجانين.. فضحك هو وصديقه ضحكة سخرية مِن تصرفات هذين الشابين، وعاودا متابعة الفيلم.

أحداث الفيلم تشير إلى سرقة بنك، قامت به بإتقان عصابة مكوَّنة من أربعة أفراد يقودهم البطل، وكيف كانت المصاعب والأزمات تصنَع الأحداث في نسق دراميّ فريد، فيلم صُنع بإتقان، وليس غريبًا أنْ يتصدَّر شباك الإيرادات.. ورغم ذلك جُل ما كان يَشغل (سعد) هي الضحكات المتعالية مِن جهة الرجل وصديقته، ترك الفيلم وبدا مهتمًا بكل حرفٍ يَصدر منهما، كل همسة، كل لمسة، دائمًا ما كانت تغضِبه مِثل هذه الترهات ، تذكَّر لمّا حضر السينما لأول مرة صغيرًا مع والداه، جلس بينهما يتابع الفيلم، كان الجو مشحونًا بالتوتر، فالفيلم فيلم رعب، ووالده يمسك يد والدته تارة، وتارة يدخلها في حقيبته، كان باديًا عليه التوتر بشدة، فقطرات العرق التي تغطّي جبينه وملامحه الشاحبة تتكلم، ظنَّ (سعد)

أنَّ أبيه خائف مثله، بَيد أنَّ الرد جاءه وبسرعة، حينما استلّ السكين من الحقيبة وطعن أمه طعنة نافذة في القلب، صاحت المسكينة صيحة لمْ يَسمع (سعد) مثلها أبدًا، ثم سقطت على الأرض مرتطمة بالكرسي المقابل لها، حدثت بلبلة، وضجة كبيرة في القاعة، وصاح الناس، وذاع الذعر بينهم، وأخذوا يتحركون على غير هدى، منهم مَن خرج بسرعة في الظلام، ومنهم مَن اتجه حيث مصدر الصوت وذُعر مِن المشهد، ومنهم مَن أفزعته الصدمة فتوقف مكانه لا يَقوى على فعل شيءٍ، فالمسكينة كانت تنتفض كالفرخ المذبوح، أمَّا هو، (سعد) فكان مُحملقًا في وجه أبيه الذي كان يتمتم بعبارات الغضب والوعيد لأمه المُسجاة أمامه، وقد فاضت روحها لبارئها.

يحدُث في حياة المرء أشياءً فارقة لا يستطيع منعها، أو حتى إدراكها، مهما طال عليها الزمان، تتخلله، وتعبره؛ فيصبح أشبه ببحيرةٍ سطحها ساكن، وباطنها مضطرم.

هزه (مرزوق) قائلًا:

ـ هيا (سعد) يا سرحان لقد انتهى الفيلم.

لمْ ينتبه إلّا على كلمات صديقه، التفت إلى الشابين فلمْ يجدهما، وشاهد جموع الحاضرين يهمون بالمغادرة، أدرك أنَّه شرد في ذكرياته، حتى (مرزوق) قال له كلماته وسبقه ورفيقاه للخروج، فلمّا نهض من مكانه أحس بحذائه وكأنَّه يطأ الماء، نظر إليه فإذا هو سائل قاتم كالدماء، تعجَّب في صمتٍ.. ما هذا؟ ولمَ أمامه هو فقط؟!

تحرك بسرعة مغادرًا مكانه، فسمع صوت موسيقى الفيلم ترتفع، استدار وهو على باب القاعة والعرق يتصبَّب منه ناظرًا للشاشة فشاهد اللقطة الأخيرة وعليها أسماء الأبطال، وفريق العمل، ثم فجأة انقطعت الصورة، وظهر وجه أمه بملامحها الخائفة، وعينيها البراقتين، تنظر له مباشرة، وسمع صيحتها الرنانة، ارتعد وأسرع يغادر قاعة السينما، ينادي على (مرزوق) ورفيقيه، ويبحث كما يبحث دائمًا.. عن الأمان.

عينان وأقدار

ركن (سامح) سيارته بجوار دكان صغير ليشتري علبة الدخان، نزل ليطلبها من البائع، كان حوله ثلاثة أو أربعة أشخاص آخرين كل منهم يشتري شيئًا ويحاسب البائع، شعَر (سامح) بالتشتت في عيني البائع، فقرر أنْ ينتظر حتى يفرُغ من الآخرين، رغم أنَّه لمْ يتبق على موعد طائرته سوى ساعتين، رحلة هذه المرة إلى «إسبانيا» لمدة عشرة أيام، يتمنى أنْ تُكلل بالنجاح كباقي الاتفاقيات التي يرأسها، و فجأة رآها.. ظهرت أمامه، توقف الزمن للحظات، وكذلك هو، وهو يراقبها تتحرك وبرفقتها فتاة أخرى.

- هي فعلًا؟ أجل.. هي!!

حدَّث نفسه بذلك، وهو مندهش.

ذهبت مباشرة لثلاجة المشروبات الغازية.. ابتسم، وقال في نفسه:

- ما زالتْ تحبها!

راقبها وهي تأخذ علبتين، وتضحك، و تُكمل حوارها مع رفيقتها، ثم رأته، ثبتت مكانها وتشابكت بينهما العينان، علت وجهها الدهشة:

ـ أيُعقل أنْ يكون هو؟!

حدَّثت نفسها بذلك أيضًا:

ـ ما هذا القدر؟!

فآخر مرة التقيا، كانت من سبع سنوات، يوم افترقا.. كان شابًا صغيرًا، لا يملك لها بين يديه غير قلبه والأحلام، وكانت ترى فيه كل الأمان، كانت لغة الحب بينهما تزداد وتزداد، غير أنَّ لأهلها كانت كلمة قاطعة، ففي نظرهم هو لا يصلُح لها، فأمامه مشوار طويل، وهي جاءها متقدمًا آخر، يحمِل في جُعبته الكثير، فكان الوداعُ والافتراق واقع فُرض عليهما بلا اختيار، ولأنَّه يخاف عليها.. فهو يحبها، قرر أنْ تنقطع بينهما أي اتصالات حتى يكون جاهزًا لطلبات أهلها، وإذا قدر الله ـتعالىـ لهما ذلك، فسيكون، مهما كانت رغبتهم، وأخبرها:

ـ قلبي لمْ ولن يرى غيرك حتى أموت.

وهي ردت عليه:

ـ سأقاوم وأنتظرك، وإنْ أعيتني الحِيَل، تأكد أنَّ حبي لك لن يموت.

وسارت بهما الأيام والأقدار، واشتغل على نفسه كثيرًا ليل نهار حتى ارتقى في عمله، ووصل لمنصب مدير تنفيذيّ في شركةٍ عالمية مرموقة.

أمَّا هي، فقاومت إصرار أهلها على زواجها مرات ومرات، فلمَّا فاض بها، وما زال هو على صمته، استسلمت لهم من عامين، وتزوجت من طبيب هو في معاملته معها إنسان، لكنَّه لمْ يستطع أنْ يمتلك أهم ما فيها «قلبها».

أما (سامح) فكان يتابع أخبارها في حرص وتدقيق، دُون أنْ يُعلِمها، حتى عرف بزواجها، فتحوَّل لعمله، وانشغل به.

ساد الصمتَ الموقفُ بينهما والمكان، وخُيل لهما أنَّ حولهما أصبح فراغًا.. هي وهو فقط، وللحظات باغتهما الاشْتِيَاقُ.

أي حب هذا الذي يستيقظ في ثوانٍ، فيملأ كل شيء حولهما بالورود والريحان!

علت وجهها الابتسامة والارتياح، وتمتمت له بعينيها:

ـ لمْ تتغير، أنت كما أنت.

نظر لها في حنان، و قال بعينيه:

ـ وأنتِ جميلة كما أنتِ.

وبدا أنَّهما لمْ يفقدا حديث العينين بينهما، رغم مرور كل هذه الأعوام.

لمْ يوقظهما إلّا صوت صديقتها:

ـ (دينا).. ماذا بكِ؟! أتعرفينه؟

هزت رأسها منتبهة، وقالت:

ـ نعم يا (رنا)، هذا سامح.

تفاجأت (رنا) ونظرت له، وقالت:

ـ هذا هو!

انتبهت (دينا) لصوتها العالي، وقالت لها:

ـ صوتك عالٍ.. اصمتي.

صوتها وصله فاستيقظ من غفوته، ولأنَّه لا يريد لها أي موقف يصعُب تفسيره.. اختطف نظرةً لها سريعة في وداعٍ، وهو يتجه لسيارته، كأنَّه يقول لها:

ـ سأذهب حتى لا أسبب لكِ الإحراج.

فبادلته نظرة عتاب:

ـ سريعًا هكذا؟!

نظر لها أخيرًا نظرة تحمِل كل الحب والأمان كما اعتادت، كأنَّه يقول:

ـ هكذا أفضَل.. يكفيني أنْ رأيتك قدرًا.

واستدار يركب سيارته ويرحل، تاركًا روحه في ذلك المكان، وحاملًا معه قلب (دينا) لآخر ما فيها من الأنفاس.

ثلاث طلقات

طلقات متتالية.. ودخان متصاعد لا ينقشع.. ضبابية وألم يعتصرني.. يعتصرني بشدة.. خرجت هربًا منه، ثم توقفت.

هل للمكان قيمة إذا ما اعتصرنا الألم؟ كمَن فُتحت له بوابة الزمان لينفذ منها!

توقفت.. لا لأبحث عن إجابة؛ بل لأنَّ الكابوس المزعج يهزني.. وتلك الأصوات من حولي تؤرقني.. تتداخل وتتعالى.. بعضها كلمات.. والآخر صرخات وبكاء.

أحدهم يدفعني في ظهري.. تجاهلته.. ثوانٍ ودفعني مرة أخرى، اعتدلت بظهري ولمْ أعره اهتمامًا.. أليس كل ما يحدُث لنا لا يستحق الاهتمام؟! بعض الأحداث وقودها مصطنع، والرد عليها بالتجاهل هو الحل.. حدَّثت نفسي بذلك، وفي ذات اللحظة توالت الدفعات، لحظَتها أدركت أنَّه لم يكن يريد أنْ يحركني ويدفعني.. بل يريد إسقاطي.. وقبل أنْ ألتفت إليه لأعرفه.. سَقَطْتُ بسرعة رغمًا عني، مذعنة مضطرة، وبقوة الإندفاع أحسست بلسعة برد جارفة.. سرعتي على هذا المنحدَر كانت

عالية.. سَقَطْتُ على الغطاء الأسود العريض.. أعرِفه، سَقَطْتُ وحولي العشرات مثلي، كالساقطون من سفينة تغرق وسط المحيط.. يقتربون بعضهم من بعض في لحظة فيصلية، فهل وجودنا بين الآخرين في لحظة كتلك كافيًا لينجينا؟! أسئلة تتآكلني كثيرة.

تتبعت الغطاء وسط الضوضاء.. حتى وصلت لإحداهن قريبة، كلمَّا اقتربت منها أحسست بالراحة، فابتسمتُ.. صاحتْ في:

ـ أتبتسمين؟ ألا تدركين ما أنتِ فيه؟

صمتّ، فاسترسلت:

ـ هذا رثاء.

نَظَرْتُ لها باستغراب، فتابعت:

ـ عيناها ألقتنا حبًا ورثاءً، فصغيرها ووليد قلبها اليوم مات.

ومع صمتي المستمر، ظهر لها جهلي بما تقول، فأكملت باقتضاب:

ـ زياد.. بطل شهيد بإذن الله، طالته يد الغدر في سيناء، تُوفي وهو في ريعان الشباب حاميًا لموقعه الحدوديّ ضد الأعداء، قاتَل البطل، ودافع عن نفسه وزملائه، حتى نفذت منه الذخيرة.. وسقط شهيدًا.. بثلاث طلقات

ساد الصمت بيننا.. وأنا أحاول استجماع الأفكار:

ـ لكنَّني لستُ للحزن؟!

ـ ماهذا الالتباس؟!

نظرت للجميع فوجدتهن يشْبهنها، وأنا الوحيدة بتركيبة فريدة، كنت أنظر إليهن مذهولة، فإذا بِارْتِطَام قوي يضربني.. ترنحت من شدة الارْتِطَامِ، والتصقت أكثر بالغطاء، دارتْ حولي الأشياء، وفقدت الاتِّزَانَ..

فلمَّا هدأت موجة الاهتزاز تطلعت لمصدر الارْتِطَامِ، فإذا بدمعة تشْبهني ملتصقة بظهري.. قلتُ لها:

ـ من أنتِ؟

أجابت:

ـ مثلك.

قلت لها:

ـ من أي نوع؟

أجابت:

ـ فخر واعتزاز.

ابتسمتُ لها.. فاستطردت:

ـ أنتِ أولنا والأخريات قادمات.. نسقط الليلة على شهيد السماء.

الدمار الذيذ

على كرسي المقهى، جلس بجوارها (حسام) وأمامه عصير الليمون بالنعناع، يتأمل ملامحها الرقيقة بسعادة.. هاتين العينين تسكبان الطُّهر في جداول الماء، تسقيانه شربة دفء.. تطعمانه الزهر، مع غناء العصافير ونسمة باردة.. كان معهما أبعد ما يكون عن الأرض، أقرب ما يكون إلى السماء.

هز رأسه في عنفٍ، وكأنَّما أراد أنْ يستعيد وعيه، واختطف نظرة ثانية لوجهها المبتسم له في صمت، وقال لها في ثبات:

ـ ألنْ تبتسمين؟!

نظرت إليه نظرة ساحرة يعرِفها جيدًا، ثم ردت (هند):

ـ بدون أسباب؟!

قال لها بسرعة واستنكار:

ـ بدون أسباب! يا سنا الياسمين.

ابتسمت في خجل، فأردف سريعًا:

ـ يا دمارًا!

قالت في دهشة طغت على ملامحها:

ـ أنا دمار؟!

ابتسم لها بعينيه، وقال بيقين:

ـ نعم، أنتِ من المدمرين، علامَ تتعجبين؟!

ما زال حاجباها مرتفعين، وعيناها في ذهول، وفمها عفا أنْ يردد إلّا كلمة واحدة خرجت بانفعال وتصميم:

ـ أنا؟!

قال لها:

ـ نعم، أنت كالزلزال أو البركان.. أتعلمين؟ أراكِ أقرب للإعصار بما تحدِثيه من دمار.

كان سيصمت، غير أنَّ ذهولها المستمر أجبره على الاسْتِمْرَارِ قائلًا:

ـ أجل، إذا مررتِ بقلبٍ يومًا، فأنتِ تتركينه بَعدك خرابًا، لا يريد الحب، ولا يصلُح له مجددًا، أنتِ وفقط، ولا حب بعدك، أليست هذه من أفعال الدمار كما الإعصار؟! يقتلع البيوت والأشجار، ولا تعود الأرض بعد مروره، كما كانت قبله؟ حبيبتي، كوني على يقين، أنتِ لهذا الكوكب من المدمرين، ولا بد للمنتصرين في معركة إنقاذ الأرض أنْ يدركوا خطركِ على مساعيهم.

ثم صمت لثانيتين، وردد هادئًا، وفي عينيه نظرة حنان:

ـ أو أنْ يرضخوا مثلي للدمار في هدوء واستسلام.

من بيننا

أخرج (أكرم) منامته من السيارة، ووضعها على الأرض بجوار مجموعة الحطب، التي اقتطعها منذ قليل، نظر له (سيف) قائلًا:

ـ أين خاصَّتي يا فتى؟

ابتسم له (أكرم) قائلًا:

ـ داخل السيارة، أحضرها بنفسك.

تطلَّع له (سيف) في حنق ورد قائلًا:

ـ ولمَ لمْ تُحضِرها معك؟ كم أنْتَ سخيف!!

ابتسم (أكرم) ثم قال:

ـ لأرى ملامح وجهك المكفهرة هذه، يا غضبان.

تابعه (سيف) في صمت، وهو عائد إلى السيارة ليختفي دقائق، ثم يظهر حاملًا معه منامته ويرمي بها أمامه ضاحكًا.. اتجه (سيف) إلى الحطب، وأحضر بضعًا منها متجاهلًا ما فعله (أكرم)، ووضعها بجوار الشعلة التي أضاءها، هما بحاجة للدفء والنار، وسط الظلام الحالك،

فقد اعتادا على التخييم في غابة المعمورة مرة كل عام، وهذه أول ليلة لهما هذا العام، ناداه (أكرم):

ـ أأحضر لكَ بعض الشاي؟

أجابه باقتضابٍ:

ـ أجل.

تابعه (أكرم) وهو يبتسم من ملامح صديقه، واقتضابه في الحوار، كم يحب أنْ يضايقه، ويجد في ذلك متعة، فصداقتهما منذ كانا في التاسعة، صداقة عمر.

جلس كل منهما على طرف من وهج النيران، وقد جهَّزا منامتيهما بجوار الخيمة.. يشاهدان احتراق الحطب وغليان البراد من فوقه، أحضر (أكرم) الكوبين، وجهزهما بالسكر والشاي، وما أنْ أطلق البراد صفارته حتى سكب فيهما الماء، سرت لسعة من البرد في أوصالهما في ذات اللحظة مع هبَّة رياح صيفية، وبدا لهما كم هو شديد احتياجهما للشاي!.. جلسا يحتسيان في هدوء بدون كلام، وما قاطعهما سوى عواء ذئب جاء من بعيد.. قال (سيف):

ـ صوته بعيد، ولكن الحذر مطلوب، أسرِع في تناول الشاي، وأرى أنْ نبيت الليلة في السيارة.

قال (أكرم) متعجبًا:

ـ ماذا؟ وهل هذا يصبح تخييمًا؟ لمْ نفعلها من قَبل!

رد (سيف):

ـ صدري منقبِض، فلنفعلها الليلة فقط.

نظر له (أكرم) في تحدٍ:

ـ لا، بل سنبيت كما اعتدنا كل عام.

عاد الصوت يعلو من جديد، فاستشعر (سيف) قربه، وقال سريعًا:

ـ لا مجال للعناد (أكرم)، أرجوك.

تمعَّن (أكرم) في عيني صديقه، فشاهد الخوف فيهما، لمْ يعهده كذلك من قَبل، صمت قليلًا، ثم قال:

ـ حسنًا عزيزي، لنفعلها هذه المرة، ولكن على شرط أنْ تقضب حاجبيك مرة أخرى!

زال القلق من عيني (سيف)، والتقط حجارة من جواره وقذفها بِاتِّجَاهِ صديقه مازحًا، تحاشاها (أكرم) بحركة خاطفة سريعة، وضحك على مزاح صديقه الحميم.

كَم هي غنية أرواحنا بمَن يفهمها ويحتويها في أسفارها المتقلِّبة.. عندما يُسلب منا هدوء العَقل، ويتسلل إلينا خِلسة الخوف والضجر، وننحصر في زوايا التخبُّط.. ثرية هي قلوبنا بأشباهها.

أغلق (أكرم) باب سيارته (الفورد ماستر) الكبيرة، وهو يتابع صديقه ينام على السرير الوحيد فيها.. فبدأ في تجهيز فِراشه في الأرضيَّة ونام عليها، وهو يقول لصديقه:

ـ بسببك أنام الليلة على غير ما انتظرت، لنا شأن آخر بالغد، وعقابك أيضًا جاهز.

نظر إليه (سيف)، وقال في دهشة:

ـ عقاب؟!

رد عليه (أكرم)، وهو يقاوم النوم:

ـ أجل، أتظنني قطعت مائتي كيلو متر، لمدة ساعتين ونصف، وتركت (كوثر) والبنات، حتى أنام في السيارة؟!

أجابه (سيف):

ـ ما العِقَابُ إذًا؟

ـ سأُخفيكَ في الغابة.

قالها (أكرم) والحروف تخرج منه ثقيلة إيذانًا عن استسلامه للنوم.

فلمَّا فتح عينيه، نظر حيث السرير، فوجده فارغًا من صديقه، والفراش غير مرتب؛ هز رأسه في استفاقة، واعتدل، فشاهد الضياء يدخل للسيارة من الزجاج، إيذانًا بحلول الصباح.

نادى بصوت متعَب:

ـ سيف.. سيف.

لم يرد عليه، التفت يُمنة ويُسرة، ونادى:

ـ سيف.. أين أنت؟ سيف.

شاهَد الأغراض كلها في مكانها حتى هاتفه المحمول، وهاتف سيف مكانهما.

فتح باب السيارة، فإذا موقد النار قد خمد، وكل شيء كما تركاه بالأمس، ولا أثر لصديقه.

انتابه القلق الشديد، فليس من عادته أنْ يخرج لوحده، بل بالعكس، الليلة الماضية كان خائفًا بشكل واضح على غير المعتاد.. نادى مجددًا:

ـ سيف كف عنك هذا المزاح.

لم يجبه أحد، فأخذ القرار بالبحث عنه في الجوار.

حمل مسدسه، وأغلق السيارة، وعلّق على زجاجها ورقة كتب عليها..

ـ «غَادَرْتُ للغابة بَحْثًا عَنْكَ، إذا ما عدتَ، لا تتحرك حتى أعود»

بدأ السير بحذر بين الأشجار، وفي يده المسدس، وهو ينادي على سيف مرارًا، غير أنَّه ما من مجيب، الشمس تشتد في السماء، والغابة مليئة بأشجار بلوط الفلين والصنوبريات والأكاسيا، فغابة المعمورة بالمغرب واحدة من أكبر الغابات الفلينية في العالم، كان يبحث والقلق يعيث في قلبه ودمه.. أين ذهب صديقه؟ وكيف لم يشعر به؟ لم يصدُر من سيف مثل هذا التصرف منذ بدآ التخييم منذ ستة عشر عامًا، كانت أول رحلة لهما مع الكشّافة في الثانوية؛ ومن يومها وحتى بعد انقطاعهما عن الكشافة، صارا يخيّمان معًا لأسبوع على الأقل كل عام.

زلَّت قدمه وهو منهمك في التفكير فسقط من على حافة، لم ينتبه لها فكان السقوط قويًا؛ أصيبت قدمه اليمنى بالالتواء، فصرخ من شدة الألم، غير أنَّه استجمع قواه ونهض سريعًا يبحث عن مسدسه الذي سقط منه فلم يجده.

أي صباح هذا بكل هذه الغرابئيات.. مالذي يحدث؟ تحرك يجر قدمه المصابة وهو يبحث بعينيه عن مسدسه وصديقه، ثم انتبه أنَّ الأشجار حوله قد قصُرت واختلفت فما عادت بِارْتِفَاعِ الصنوبر والبلوط، نادى على صديقه فكان مجيبه الصدى، قرر التوقفَ لكي يستريح فقد انهكه الظمأ والتعب، ولسوء تقديره لم يحضِر معه حتى زجاجة ماء، نظر خلفه وأدرك أنَّه ابتعد كثيرًا عن مكانهما، أي مأزق هذا؟ فهو لم يصطحب

معه حتى خريطة أو حزمة إشعال، كل ما كان معه مسدسه الذي فقده في السقوط، لطالما كان لا يُحسن التصرف مثلما يفعل (سيف) قال بصوت عالٍ خرج من صدره بثقله:

ـ أين أنت يا (سيف)؟

أحس بشيء يضربه على رأسه، فسقط فاقدًا لحظتها الوعي.

فتح (أكرم) عينيه فوجد أمامه وجه أسمر البشرة بعينين سوداوين جاحظتين مرسوم عليه رسومات غريبة بالأبيض؛ أصابه الهلع، حاول تحريك جسمه لكنَّه أدرك للحظة أنه مكبل في جذع شجرة، أدار بصره حوله فشاهد العشرات هيئاتهم تدل على البدائية، وكلهم بذات الصبغة التي على وجه صاحب العينين الجاحظتين، يحمِلون في أيديهم الرماح والحجارة.. ما هذا المكان ومَن هؤلاء؟

نظر إلى يساره فشاهد (سيف) مَرْبُوطًا على شجرة بجواره، ورأسه يتدلَّى على كتفيه.. بدا له غائبًا عن الوعي، نادى عليه بلهفةٍ:

ـ سيف.. سيف.

لم يتحرك سيف، فأدرك أنه غائب عن الوعي، ومربوط من كتفيه لقدميه بالحبال،

جاءه صوت صاحب العينين الجاحظتين كالرعد، حين قال:

ـ ما الذي جاء بكما هنا؟

رد عليه (أكرم) فزِعًا:

ـ جئنا للتخييم.

قال له الآخر بصوت مرعب:

ـ لا أحد يدخل «سينتينل».

رجف (أكرم) وقال:

ـ ماذا؟ ما «سينتينل»؟ نحن في المعمورة..

ثم ابتلع لعابه، وأردف:

ـ ونأتيها كل عام.

صرخ صاحب العينين:

ـ لا أحد يدخل «سينتينل» ويخرج منها.. هي لنا أيها الغرباء.

تطلع له (أكرم) في ذهول.. فهو لا يفهم ما يقول هذا المجنون.

لم يمهله ليدرك الكثير حتى أشار إلى رفقائه، فجاء ثلاثة منهم بسرعة وفي أيديهم السهام، وصوَّب ثلاثتهم عليه، يريدون قتله، فأعينهم لا تكذب، وفي ثانية شعر بثلاثة أسهم تخترق جسده، وأحس بغصة في حلقه، ولم يدرك شيئًا بعدها.

استيقظ (سيف) فشاهد موضع فراش (أكرم) فَارِغًا وبه آثار دماء، أصابه الفزع والخوف وهو ينادي صديقه:

ـ (أكرم).. (أكرم)..

فلم يرد عليه أحد، أخذ يقلب في الفراش المغطى ببقع الدماء، فوجد مقال مقتطَع من صحيفة كُتب فيها «جزيرة (سينتينل) الشمالية، الهندية، إحدى بقاع الأرض الأكثر سحرًا وجاذبية، تقع في خليج البنغال، وسط المحيط الهندي.. سكانها الأصليين عزَلوا أنفسهم عن العالم تمامًا، وحتى عن مظاهر التقدم التكنولوجي، والحياة الحديثة على الإطلاق، لا يَقبلون بدخول الغرباء ابدًا، ويقتلون كل من يحاول استكشافها أو الاقتراب منها، وأنباء عن اختفاء مغامر آخر اتجه إليها منذ يومين مغربيّ الجنسية يُدعى (أكرم)».

الخوف في عيون شابة

ـ ثلاثة شاورما دجاج، وعلبة تبولة، وأربعة مناقيش زعتر.

ـ ثواني وأحضر التبولة.

ـ الشطائر معي.

ـ بسرعة يا محمود، أريد أربعة مناقيش زعتر.

ـ ها هي التبولة.

ـ المناقيش جاهزة.

ـ الطلبيه جاهزة.. طلب رقم ٢٥٣.. طلب رقم ٢٥٣ .

نادى أحدهم بصوت عالٍ:

ـ أنا ٢٥٣ .

ـ تفضل طلبك.

كان هذا الحوار بين محمود ومسعد في تجهيز الطلبات كفريق في محل(شاميات للمشويات والأكلات السورية).

نظر مسعد في تحدٍ لمحمود:

ـ كنت أنا الأسرع هذه المرة.

أجابه سريعًا محمود:

ـ لا، بل أنا الأسرع.

مسعد:

ـ إذًا، لنراهن على الطلب الذي يليه.

محمود:

ـ اتفقنا.

كان يتابعهما من خلف ماكينة الحساب بعينين زرقاوين مبتسمًا، لطالما كان الشابان مجتهدين، يسعيان للقمة العيش، ولطالما كانا مشاكسين.. تفقَّد ذلك الرجل صاحب الخمسين خريفًا ببصره المكان، كل من يعمل لديه من أبناء وطنه المكافحون.. قاطعه صوت حمل له الحنين:

ـ كيف حالك، (أبا يزن)؟

تطلع لمصدره، يالله، إنه أبو أنس، صديقه في السنين العجاف.

ـ حبيبي (أبا أنس)، كيف حالك يا غالي؟

ـ الحمد لله يا أخي.

كان (أبو أنس)، ومعه ضيف شاب في مقتبل العمر.

ـ تفضلوا، شرفتوني، أهلًا وسهلًا، ماذا تشربان؟

أجابه (أبو أنس):

ـ سحلب لي و(لمصباح).

وأشار بيده لمرافقه الشاب.

صاح (أبو يزن) في أحد الفتيان، وهو يُطيل النظر للشاب:

- (محمد)، لو سمحت فنجانين سحلب للضيفين.

- الله يكرمك أخي الحبيب، كيف حال التجارة، (أبا يزن)؟

هكذا قال (أبو أنس).

- الحمد لله، أصبحنا معروفين في المنطقة بفضل لله.

- إن شاء الله، منها للأعلى يا غالي.

- يا رب، أخي.

أحضر (محمد) الفنجانين أمام الضيفين، أخذ (أبو أنس) رشفة من الفنجان، ثم نظر إلى (مصباح)، وقال له:

- أحلى فنجان سحلب تأخذه عند عمك (أبي يزن).

ابتسم له (مصباح) في خجل دون أن ينبس ببنت شفة.

فاستطرد (أبو أنس) مخاطبًا (أبا يزن):

- حبيبي، لي خدمة عندك، وأعلم أنك لن تردني كالمعتاد.

- حبيبي، أنتَ تأمرني

هكذا أجاب سريعًا (أبو يزن)، فأكمل صديقه الحوار:

- هذا الشاب المكافح اسمه (مصباح)، حضر حديثًا من العذاب، والله وحده يعلم كيف خرج من هناك، غير أنه فقد أسرته، ولا يملك مأوى له أو دخلًا.

نظر (أبو يزن) لـ(مصباح) من خلف نظارته العتيقة، نظرة شفقة، وخاطبه قائلًا:

- ونحن له دار وأهل.. من أين العزيز؟

- من دير الزور.

- أهل كرم وأخلاق يا (مصباح).
- أعزك الله، عمي.
- حمد الله على سلامتك يا بُني، لا تحمِل هم شيء، أنا وأخوتك هنا عونًا لك بعد الله تعالى.

ثم نادى (محمدًا)، فأتى له سريعًا:

- نعم، عمي (أبا يزن).
- خذ يا (محمد) أخاك (مصباح)، وعرِّفه على باقي أخوته والمكان.

أومأ له (محمد)، ثم اصطحب (مصباح) في هدوء.. كان (أبو أنس) يتابع المشهد، فلما غادر مصباح، ابتسم لصديقه وقال:

- دائمًا كريم، وابن أخ كريم يا (إسماعيل).
- حبيبي يا (أبا أنس)، إنْ لم نكن لبعضنا البعض، فمن يكون؟ وكيف نكون؟ هؤلاء الشباب لا ذنب لهم، استيقظوا يومًا على نيران، وحريق، وبلد مُحطم من كل الجهات، وأعداء أكثر من حبات الأرز، قدَرهم كان قاسيًا يا أخي، فإنْ كان لنا أنْ نُخفف عنهم، فليت ذلك ينفعهم بشيء.
- صدقت والله أخي، كل منهم بدلًا من أنْ يقضي شبابه على سرير دافئ بين أهله وأحبابه، يأكل ما لذَّ وطاب، ويستمتع مع أصدقائه، ويخطط لمستقبله، ذاق العذاب ويلات.. حربًا، ودمارًا، وشِتاتًا، وضياع أهل وأحلام.

تنهد بحزن (أبو يزن)، وهو يتذكر ابنه (يزن) ذا الأعوام الثمانية عشر، والذي قضى نحبه أثناء هروبهم من ويلات الحرب، تلك الحرب التي قصفت بأمانهم وديارهم والأهم دمائهم، تذكر يوم اقتربوا من الحدود للبنان، وظنوا بأنفسهم الأمان، وأحسوا أنها سويعات وينتهى كابوس الذل والعذاب، غير أنَّ كل ذلك تبخَّر كالسراب لحظة استوقفتهم سيارة لا يعلم حتى الآن إلى أي طائفة تنتمي، أو إلى أي مذهب أو حزب.. فسوريا أصبحت بيتًا خربًا، تختبئ فيه العفاريت والأشباح.

صاح قائد السيارة «الجيب» أنْ يحضروا كل مالهم وزادهم، وإلّا أفرغ رصاصه فيهم، ولأنَّه كان يَحمل معه زوجته وابنتيه، أخرج لهم سريعًا المال والعتاد، وتحرك ليعطيه لقائدهم، فاستوقفته يد (يزن) قائلًا:

ـ لا تفعل، أبتاه.

همس له بصوت منخفض جدًا:

ـ بلى يا ولدي، حتى نعف أنفسنا، وأمك، وأخواتك البنات.

أشار له (يزن) برأسه رافضًا هذه الكلمات، وفي عينيه كان يسكن الإصرار؛ لن يسمح لأبيه مجددًا أنْ يساوم عليهم بالمال لهؤلاء.. من هم ليأخذوا ما تبقَّى لهم، ويهربوا به وسط النيران بهذه السهولة؟!

نظر(إسماعيل) لعيني ولده الفتيه، وقال له:

ـ هذه المرة فقط، يا بني، ليتركونا نرحل، اقتربنا من لبنان، وسنكون هناك في أمان.

تطلع له (يزن) وقد امتلأت عينيه بالتحدي:

ـ ليس هذه المرة أيضًا يا أبي، ما عاد معنا إلّا القليل.

ثم فتح باب السيارة بسرعة، وخرج يخاطب قائدهم بصوت مرتفع:

ـ لا نملك المال، وليس معنا شيء لكم.

كانت عينا القائد كالصقر.. ثاقبتين، كهذا رآهما (إسماعيل) لمّا استلّ البندقية، وفي ثوانٍ أصاب الفتى بالرصاص فأرداه قتيلًا في الحال.. صرخت الأم والفتيات.. نظر (إسماعيل) لابنه فزعًا، فرآه لا يتحرك وعينيه مفتوحتين.. أدركت لحظتها أنه مات، فانطلق بالسيارة مسرعًا في حركة باغتت المجرمين، وجرت مطاردة بينهم حتى أنجاهم الله تعالى، ووصلوا إلى حدود لبنان.. أنجاهم أجسادًا تقطر أسى وحزنًا وغضبًا على فقيدهم الوحيد (يزن).. أجسادًا فقدت الأمان ومفاتيح السلام، وتقطعت منها خيوط الفرح والسعادة، وسكن بدلًا منها الحزن وحشًا يفترسهم بالليل قبل النهار.

عاود الرد على رفيقه فقال:

ـ الحمد لله على كل حال

لمح (أبو أنس) الوجع يقفز لمُحَيَّا صديقه، فأسرع يقول:

ـ الحمد لله الذي سخرك لأمثالهم عونًا، ودعمًا، وأبًا، فأنت منذ استقر بك الحال في الإسكندرية لم تترك طارقًا يطرق بابك وخذلته يا أخي، والله إنك لتنصر القلوب المكلومة والمهزومة.

ـ يا أخي «المسلم للمسلم كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضًا»، فإنْ لم نكن كذلك في هذا الكرب والهم، فمتى نكون؟! أخبرني عن عملك.. كيف أصبح؟

ـ الحمد لله، أرسل أحدهم يطلب نِقاشة بيته، وسوف يعطيني أجرًا جيدًا.

ابتسم (أبو يزن) وقال:

ـ الحمد لله، بإذن الله فاتحة خير عليك وعلى أولادك، يا أخي.

ـ بإذن الله ـتعالىـ ولكنه طلب تسليمه خلال أسبوعين، وهذا فوق مقدرتي الآن.

ـ تستطيعها، استعن فقط بالله.

ـ ونعم بالله، يا أخي.

ابتسم (أبو يزن) لصديقه وهو يربت على كتفه، ويقول:

ـ بهذا الخبر السعيد، عشاؤك الليلة معي، ولأسرتك الغالية أيضًا، فماذا تطلب؟

رد صديقه الابتسامة بابتسامة أجمل، ثم قال:

ـ لحمًا بالعجين.. على شرط أنْ يكون من يديك الكريمتين.

ضحك (أبو يزن)، وقال له بسرعة:

ـ عيوني، أخي.

ثم نادى (محمدًا):

ـ أحضر لي بعض العجين، سأصنع لـ(أبي أنس) الليلة أحلى لحم بالعجين.

أزمة بصر

ضرب صوت المنبه معلنًا الساعة الثامنة صباحًا، موعد استيقاظ (خالد)، مد يده ليُغلق المنبه، لم يعتد الاستيقاظ على أول جرس له.. كان جسمه ثقيلًا، وكأن إعصارًا ضربه، يريد أنْ ينهض، ولكنه لا يستطيع، قرر أنْ يختطف نصف ساعة أخرى قبل الاستيقاظ، انقطع عن التفكير، وأحس بجسده يتخدر ويدخل في حالة اللاوعي، ففاجأه جرس المنبه من جديد.. انتفض على صوته، واعتدل على السرير.. كم هو مزعج هذا المنبه!

فتح (خالد) عينيه، وهو يتثاءب، لم يَحصل على كفايته من النوم، لكنه مضطر للاستيقاظ، لا يرى جيدًا، دعَك عينيه بكلتا يديه ثم عاود فتحهما، لكن لم يتغير شيء، ضباب.. غشاوة على عينيه، قال لنفسه:

ـ سأذهب لأغسل وجهي وأتوضأ وأحاول الاستفاقة.

تحرك في هدوء مغادرًا الفراش، استند على الحائط وهو يتحرك، وذهب إلى دورة المياة، وغسل وجهه، ونظر إلى المرآة، فوجد نفسه على ذات الحال..

الضباب والغشاوة.. فاعتراه الخوف:

ـ ترى ماذا حدث لِعَيْنَيَّ؟

تذكر أحداث الليلة الماضية.. كانت حفل عَقد قَرانه على (جاسمين) في أحد السفن العائمة، سهرة جميلة، أسطورة من الفرحة والسعادة حضرها كل الأهل والأصدقاء والأحباب، فرِح كثيرًا، وسعِد أكثر بارتباطه بها، فمنذ جمعتهما المواقف والأقدار، وغزاه شعور لذيذ كحرارة خط الاستواء، أيْقن أنها الوحيدة التي كتبت لقلبه ترانيم الشغف وفتحت له أبواب الحب والهذيان؛ فصار يتذوق بها لذة الحياة..

أكثر الاشياء قداسة.. ما تَغيب عن إدراكنا في البدايات، وتصل بحواسنا إلى الرنين بين الصمت والكلمات.. أكثر الأشياء قداسةً ما تستحيل على التعبير.

في الليلة الماضية.. شاهد قلبه وأحلامه يغادران صدره، ويرتقيان للغيمات إسْقَاطًا للمسافات، وإشراقًا لصباحٍ آتٍ بكل أكسيد السعادات، فهو بحبها يحيا، حبًّا يهابه التاريخ، حبًّا خُلِقَ فيه كل أشكال الأمان، انتبه للحظة أنَّ ما أكله وشربه، تناولته أيضًا حبيبته، فأخذ خطوات حذرة إلى هاتفه المحمول، وطلبها:

ـ صباح الخير، حبيبتي.

ـ صباح الخير، حبيبي.

ـ هل نمتِ بشكل جيد.

ـ لم أنم طبعًا.

قالتها، وهي تضحك، بمزيج من الأنوثة والخجل..

وعادت واستطردت:

- وأنت، حبيبي؟
- نمت من التعب.
- لَكَ الأفضلية في النوم، ولي الأفضلية بالسعادة.

صمت خجلًا، وتذكر سبب اتصاله بها، فأردف:

- سأقوم بتجهيز نفسي، ونلتقي بإذن الله في العمل.
- حسنًا حبيبي، لنلتقي هناك.

أنهى المكالمة باقتضاب، لم يرد أنْ يعكّر صفو إحساسها بالفرح.. قال لنفسه بصوت مسموع:

- سأحكي لها عندما ألقاها.

توخَّى الحذر وهو يصلي، ثم وهو يرتدي ملابسه استعدادًا للمغادرة.

فلما نزل الشارع وسار بسيارته في الطريق، تجنب السرعة على غير عادته، لا يريد اصطدامًا وهو على حاله، حاول تجنب الشوارع الرئيسة حتى لا يتفاجأ بحادث أو شُرطيّ.

كان يرى ولكن بضبابية، ارتبك لمّا شاهد الطريق أمامه فارغًا، وكلما سار ازدادت دهشته، لا يرى أي بشر، الشوارع خالية إلّا منه، لم يكن في الأمكنة التي عبرها سواه.

أوقف سيارته أمام الشركة واتجه إليها، لا رجال أمن، ولا أحد يعترض طريقه.. بدأ الريب يتمكن منه.. مالذي يحدث؟ وماهذا الصباح الغريب؟

صعَد في المصعد إلى مكتبه فأصابه الذهول.. المكان فارغ تمامًا، لم يعثر على أحد ولم يتعثر بأحد، كانت الجمادات حوله فقط، لا عُمَّالَ، ولا مُوَظَّفِين.. أين ذهب الجميع؟

لوهلةٍ وجد نفسه سعيدًا.. فما أجمل أنْ يكون محيطك هادئًا، من الضوضاء.. من الإزعاج، خاليًا من البشر، فهُم أساس الصخب، وقد كانت أمنية من أمنياته وهو صغير، ألّا يبقى على الأرض غيره، تمنى أنْ يغادر البيت للشوارع، ينطلق ويتحرك كيفما يشاء، وأول مكان يذهب إليه هو محل البقالة المجاور لبيت العائلة، كان يعمل فيه شاب بدين مقيت، المحل كان ممتلئًا بأنواع وأصناف الشيكولاتة والحلوى الكثيرة، كثير منها مستورد، لطالما كانت نظرة ذلك البدين الرامقة له حاجزًا بينه وبين حتى إمساك تلك الملذات، سيذهب أيضًا للمتاجر ويرتدي كل الملابس التي يريدها، سيغني ويرقص بصوت عالٍ، ويملأ الدنيا ضجيجًا.. ضجيجًا من صناعته هو فقط، وكأن المدينة، بل الكوكب كله ملكه، يفعل به ما يشاء وقت ما يحلو له بدون قوانين أو رقابة، ابتسم من سخافة الفكرة، يَا لأيَّامِ الطُّفُولَةِ.. فلو كان كذلك ما جلس على مكتبه الآن!

ـ مشتت؟

نظر إلى مصدر الصوت فوجدها أمامه، وصُعق حتى شَهق، صُعق ليس لوجودها أمامه بوجهها، وجه القمر الذي أسر قلبه، كنفحة بخور مُعتّق تتطاير بين موجات الهواء، ولا لبصره الذي عاد حادًا يراها ويرى كل شيء بلا ضباب، ولكن لأنَّ من خلفها كان الناس.. كل الناس، العمال والموظفون يتحركون ويتحدثون، الطابق كله يعج بالبشر، وكأنهم كانوا في خندق وانفجر.

صمته المريب وقلقه أزعجها، فأردفت:

ـ خالد ما بك؟ هل أنت بخير؟

لم يُجِبْ، تمكن الذهول منه في أعلى درجاته، شعر أنَّه كالغريق في بحر أسئلة بلا إجابات، اقتربت منه وهزته في عنف خائفة، وقالت:

ـ خالد ما بك؟ لمَ هذا الذهول والصمت؟

كان يتابع عامل البوفيه وهو يقدم لزميلته (سهام) التي تجلس على مكتبها أمامه فنجان الشاي الذي تتناوله كل صباح، ومن خلفه (إبراهيم) يقدّم بعض الأوراق لزميله (عبدالرحمن)، و(هادي) يرتّب حقيبته، أما (أمين) فكان يتشاجر مع (منذر) وبصوت عالٍ.. أين كان كل هؤلاء من دقائق؟!!

انتبه لهزتها وقلقها، وقال لها:

ـ لا تقلقي، حبيبتي.

أجابته والقلق بادٍ على محياها:

ـ كيف، ووجهكَ أصفر، وعيناكَ شاردتان؟

رد عليها وهو يبتسم ابتسامة خفيفة:

ـ لا عليكِ.. أنا بخير.

ـ كيف ذلك؟ والجميع أخبروني بما أراه، فمنذ دخلتَ المكتب وأنت لم تحدِّث أحدًا، وَحَتَّى لَمْ تَرُدّ على أي مباركات.

ـ أجل، فعلت.

ـ وتعترف؟!!

ـ أجل.

صمتت.. فأردف وهو ينظر لها بحب وحنان:

ـ فأنا من دونكِ لا أرى أحدًا..لا أرى الناس.

يوم الرحيل

وَقَفَتْ أمام الباب تنتظر أنْ يُفتح لها الباب.. سلَّم عليها الحاج (رجب) وقال لها:

ـ أهلا يا ابنتي، كنت في انتظارك.

ابتسمت (إيمان) في هدوء.. كانت اتصلت به الساعة الثانية فجرًا، وأخبرته بمجيئها للمقبرة صباحًا.. نظر إليها (رجب) باقتضاب عندما تجاهلت الرد عليه، ثم سار بضع خطوات للباب الذي علاه الصدأ وفتحه في هدوء، فأصدر الباب صريرًا قويًا، أزاحه بيده، ودخل من الباب، ومن ورائه (إيمان).

كان المكان هادئًا، ساكنًا، لا صوت فيه حتى للرياح، كل شيء كما هو حتى الجلسة الجانبية المصنوعة من الطوب الأحمر، وعليها فرش الحصير، وأمامها صنفين من نباتات الصبار بلونها الأخضر تملآن المكان بشيء من حياة.. تذكرت يوم اشترتهما بعد مرور شهر على الوفاة حتى يأخذ أبوها أجر سُقيا وزراعة هذه النباتات الصامدة، فكرت قليلًا.. كيف تغدو نباتات أقوى وأصلب من الإنسان؟ كيف تقاوم أقسى الظروف

والتحديات، بينما يسقط فيها الانسان؟! إنها معجزة البقاء، تستنكر منا الاستسلام.. وتستقطب فينا القدرات.. تُخرج منا ما لا نألفه فينا.. تنهدت تنهيدة قصيرة وهي تَقطع أفكارها عن الصبار، وتنظُر حيث يرقد لها أغلى إنسان ـ والدها ـ الراحل منذ شهور..

ـ أفتقدك يا أبي.. أفتقدك جدًا، بل كلمة جدًا قليلة، أفتقد فيك كل شيء.. وجودك، نظراتك، حضنك الدافئ، كلامك، حتى غضبك، وأفتقد فيك..

فجأة قطع الهدوء من حولها الحاج (رجب)، وهو يقول:

ـ سأنتظركِ في الخارج، يا ابنتي.

رفعت رأسها، و نظرت إليه، لم تره جيدًا، فقد أَغرقت عينيها الدموع، وأصبحت رؤيتها لوجهه ضبابًا، أومأت له برأسها ردًا على كلماته القليلة، فسار العجوز خارجًا دون أنْ يحدِّثها بشيء، لقد أدرك مشقة تلك اللحظات عليها.

نظرت (إيمان) للقبر مرة أخرى، ولتفاصيل المكان، لا شيء يتحرك أو يُصدر صوتًا، كل الألوان باهتة، ولا يوجَد غير لون الصبار هو ما يدل في المكان على الحياة، تذكرت أنَّ هذا الهدوء لا يوازي صخب ذلك اليوم المشئوم ـ التاسع والعشرين من مارس ـ يوم استيقظت على روتين اعتادته لثمانية أيام منذ دخول أبيها للمشفى، كان صدره ضيقًا ومنقطع الأنفاس، فذهب معها مُرغمًا؛ كان لا يحب التعامل مع المستشفيات والأطباء، ورغم ذلك قال لها:

ـ سنذهب فقط للاطمئنان، ونعود لتحضير الغداء.

فكان الواقع صادمًا أنَّ حالته تستدعي الدخول للعناية المركزة، ومنذ ذلك الحين وهو فيها، وحالته كل يوم بلا تحسن، وهي.. لقد كانت تعود كل يوم للمنزل وحيدة لتحضير الغداء.

كانت تتذكر ذلك اليوم المشئوم.. يوم وصلت مقر العناية المركزة، ومكثت أمام الباب في انتظار خروج أي شخص من التمريض لِلاطْمِئْنَانِ عليه، دقائق وخرج عليها أحدهم، فلما رآها أصابته الدهشة لثوانٍ، ثم تمالك نفسه سريعًا، وسألها:

ـ خير يا آنسة؟

قالت له:

ـ حالة المهندس (ممدوح)، أريد الاطْمِئْنَانَ عليه.

باغتها سريعًا في الرد:

ـ سأنادي لكِ الطبيب.

خفق قلبها لدقائق، وأَحَسَّتْ بالأدرينالين يندفع في دمائها بسرعة، أصابها الخوف من ملامحه المتغيرة، فلمّا جاء الطبيب، أكد لها إحساسها، حين قال:

ـ أستاذة.. البقاء لله.. الوالد تُوفي منذ ساعتين.

وكأنه ألقى عليها بحجر ثقيل..

ـ كيف؟ ولماذا؟ ومنذ ساعتين؟ أبي أنا؟ أبي أنا مات؟!

لم تبالِ بالإجراءات.. فقد حضر أقاربها سريعًا بعد أنْ سقطت مغشية عليها في المشفى، كل ما كانت تشعر به وتدركه العصرة في قلبها.. الوجع.. الدمار، رحل أبوها عنها وتركها في الدنيا كلها وحيدة، يومها انكسر شيء في صدرها وانحنى وغدا ثقيلًا، كلما تحركت زاد ألمها ووجع

اليتم في قلبها، يومها فتح الحرمان ذراعيه لها، ورافقها الأسى والخراب، مغدورة هي بالدنيا، مذبوحة يتآكلها الحطام.

خَرَجَتْ تنهيدة قوية من صدرها وهي تنظر للقبر..

- كل هذه الشهور يا أبي؟ لا أعلم كيف مضت، فقد تشابهت فيها الأيام؟ أتذكَّر فقط أنِّي لم أرك منذ سبعة أشهر، وثلاثة عشر يومًا، وساعتين.. يوم كنتَ على طاولة الغُسل نائمًا، نعم نائمًا، للحظة يا حبيبي ظننتك ستفتح عينيك، أي ألم يأكل روحي هذا، ويصيبني بالجنون، وهم يطلبون مني السلام عليك والانصراف؟!

صَدْرُهَا النازف ألمًا يوجعها، وهي تتذكَّر هذه التفاصيل المؤلمة ليوم الرحيل، وكيف مرَّت عليها ثقيلة كحمل الجبال.

انتبهت فإذا بالظلام يقترب، نظرت في ساعتها فوجدتها الخامسة، كعادتها منذ الوفاة فقدت إدراك الوقت، مسحت عنها الدموع ورفعت بصرها للسماء، وكأنها تخاطب ربها في عُلاه، وقالت:

- اللهم لا رادّ لقضائك.. اغفر لأبي وارحمه، وارزقني قوة وسكينة، املأ قلبي بها فتعينني على ما أنا فيه، فليس لي غيرك يارب يا مجيب، وليس معي في الأرض غيرك حبيب.. اللهم قوة.. اللهم قوة.

واستدارت تُنادي على الحاج (رجب)، استدارت مغادرة المقبرة بنفس الألم والوجع الذي به جاءت منذ أول النهار.

(تشي)

فتح (أحمد) الباب بيده اليسرى ودفعه للداخل.. مد يده اليُمنى في ذات اللحظة ليمسك يد (ندى) ليساعدها.. دخلت الجميلة تجر أقدامها على الأرض وتتحرك بهدوء.. وتستند بجانبها تارة على (أحمد) وتارة على الجدران.. أخذا أكثر من نصف ساعة في طريقهما من الباب إلى غرفة المعيشة، رغم أنَّ المسافة قصيرة ولا تأخذ في المعتاد أكثر من دقيقتين أو ثلاث، ولكن الإرهاق والإنهاك الذي بدا واضحًا على (ندى) أطال المسافة والوقت.

بمجرد أنْ لامس ظهرها الأريكة، صرخت من الألم.. كان شديدًا كمن يزرع فيها أسياخًا من نار.. أُنْهِكَتْ الجميلة ذات الشعر الأصفر والعينين الخضراوين.. فرحلة المشفى كانت طويلة، دخلته تشتكي من آلام في البطن كانت تهاجمها على فترات، فاتضح للأطباء أنَّ هناك ورمًا في الأمعاء، ولا بد له من الاستئصال.. خضعت لجلسات علاج بالإشعاع حتى يسيطروا على الوَضْع، ثم خضعت للجراحة، وأزالته، واستمرت في المشفى قرابة الشهر في نقاهة ومتابعة، حتى جاءهم الخبر الصادم منذ

يومين بظهور ورم آخر في ذات المكان، بَيْد أنَّ الأطباء استبشروا خيرًا، فهو صغير، وبالإمكان السيطرة عليه بالعلاج الإشعاعي والكيماوي.

نظرت (ندى) إلى أحمد بنظرة مختلطة.. فهي تدرك أنه مَن أخرجها من المشفى رغم رفض الأطباء وإصرارهم لها على البقاء تحت الملاحظة، فحالتها غير مستقرة، ولا بد لها من أخذ الجلسات، ارتبك (أحمد) لوهلة لما خاطبته عيناها:

ـ «أهديتك القلب ونذوره، وأهديتني السحر وآفاقه».

جلس بجوارها، وقال بنبرة حنونة:

ـ حمد الله على السلامة حبيبتي.. المنزل أضاء بنورِكِ.

ابتسمت له، وقالت بصوت يكاد لا يخرُج :

ـ حبيبي.

احتضن بيده يدها وهو يربت عليها برفق.. ثم اقترب بشفتيه منها وطبع قبلة على يدها.. باحت لها بدفء العشق وغذَّت منها الروح..

قالت له والدموع تخرج من عينيها منتشية بجنون:

ـ يكفيني أنك بجانبي..

نظر إليها في دهشة عاشق ولهان:

ـ وهل لي مكان آخر لأكون فيه؟! فأنتِ وهج القلب وتلاوته كل صباح.

ابتسمت في خجل من جمال التعبير.. لطالما أسَرَ منها القلب والروح منذ كانا جارين صغيرين.. استجمع (أحمد) الكلمات على لسانه ثم قال:

ـ بإذن الله ـ تعالى ـ سنتخطى هذه المرحلة سريعًا.. وستصبح ذكرى يا حبيبتي.

أومأت برأسها في هدوء، فقبَّل يدها مرة أخرى، وقال لها سريعًا وهو يغالب البكاء:

ـ هل أصنع لكِ كوب شاي بالنعناع؟

أومأت له مجددًا، ولكن بالرفض.. فقال لها وهو يبتسم:

ـ بل سنتناول الشاي معًا، وأحدِّثك في ما أردت بالأمس..

تذكَّرت لحظتها، ليلة البارحة في المشفى لمّا كان يجمع بقية الأغراض ويجهز الحقيبة.. أخبرها برغبته في مناقشة أمر ما.. نظرت له بعين مكسورة يملؤها الإرهاق والتعب، ثم قالت:

ـ هلا أجَّلناه للغد..

اقترب منها، وطبع على خدها قبلة رقيقة.. تسارع لها النبض في صدرها بشدة، ثم قال:

ـ لا حبيبتي سأعود سريعًا لنستكمل الحوار.

ثم مضى.. مضى، وهو يعلم أنه لا يملك رفاهية الوقت، فقد وافق له الأطباء على ثمانية وأربعين ساعة فقط، ومهمته الأساسية إقناعها بالعودة للعلاج الإشعاعي من جديد، عامل الوقت يصارعهما.. مسكين (أحمد) يعتصر قلبه الألم على ما أصاب حبيبته في فترة وجيزة، لم يكن يتخيل في أسوء الأحلام أنْ يراها بهذا التعب والإنهاك.. نوبات الغثيان والقيء والألم الشديد كابوس هاجم حياتهما، وأصبح واقعًا عليهما التعامل معه.. واقعًا مرًا كالحنظل، لا خيار غيره للأسف تصاحبه باقي الأعراض.. يعلم مدى تأثير ذلك عليها وعلى إحساسها المختلط.. بين صدمة وذهول ووجع.. تنهَّد وهو يتذكر كل ذلك، وأسرع الخُطى إلى المطبخ ليحضر الشاي، ويبدأ معها مهمته الشاقة.

أدارت (ندى) عينيها في الغرفة.. كل شيء مرتب ومنظم كما تركته؛ (أحمد) يحب الالتزام والنظام والترتيب، ويهتم بأدق التفاصيل.. أدارت رأسها يمينًا فشاهدت حوض السمك.. يالله كم تحبه كثيرًا.. أهداه لها (أحمد) كأول هدية بينهما بعد الزواج.. أراد أنْ يُدخل في قلبها السعادة والمتعة.. يعلم كم تعشق التأمل وتحب البحر والماء.. شعرت بجفاف حلقها لوهلة لكنها سرعان ما تجاهلته، وابتسمت وهي تشاهد جمال الأسماك وصفو الماء.. هذه البيئة تنقلها لمستوى آخر من الهدوء.. لديها أربع سمكات (ريتي، ونيون، وتشي، وأخيرًا مولي) اثنتين من نوع «الكوي»، واثنتين من نوع «الفانتيل».. «الفانتيل» إحداهما برتقالية اللون، والأخرى مُرقطة بين الأبيض والبرتقالي، أما «الكوي» فإحداهما بيضاء ببقع سوداء ونقطة برتقالية واحدة بالقرب من العين، والأخرى برتقالية ببقع سوادء.. مجموعة متناسقة وجميلة.. «الفانتيل» أسماك تتميز بزعنفة مقسمة إلى جزئين، أما «الكوي» فذيلها طويل.. كلا النوعين من فصيلة «الجولد فيش» وهي أسماك اجتماعية.. ألوانها عذبة خلابة.. حركتهم وانتشارهم في حوض الماء أشبه بلوحة، جميلة، رائعة، ومريحة للعينين.. ابتسمت (ندى) وهي تحاول أنْ تطال الحوض بيدها لتلاعب الصغيرات..

ـ ما هذا؟ إحداهن ليست في الحوض.. أيهن؟ أين هي؟

ركزت نظرها لتتفقدهم فاكتشفتها إنها (تشي).

تحركت يد (ندى) في الحوض، فلم تجدها، لا خَلف مُنقِّي الماء ـ ولا السخَّان.. أين ذهبتْ؟ وماذا أصابها؟

نادت على (أحمد) بصوت يكاد لا يخرج:

ـ (أحمد) أين (تشي)؟

أدارت عينيها في الغرفة، فوجدت حوضًا صغيرًا موضوعًا على طاولة التلفاز.. وفيه الصغيرة.. تنهدت، وشكرت الله فقد شرد بها ظنها بعيدًا..

جاءها صوت (أحمد) من خلفها في لهفة:

ـ حبيبتي، ناديت عليّ؟

رد بصوتٍ قلِق:

ـ أجل.. ماذا حلَّ بالصغيرة (تشي)؟ ولماذا هي هناك في حوض صغير؟

أجابها:

ـ منذ فترة بدأت تتصرف وتتحرك بغرابة.. تنعزل عن بقية الأسماك، وتتخذ من ركن أو زاوية لها مكانًا دائمًا لا تغادره.

ذهب (أحمد) وأحضر الحوض الصغير، وأعطاه لندى، التي نظرت إلى السمكة الصغيرة بشيء من الحنين، ورددت اسمها:

ـ (تشي) ماذا حل بكِ، يا صغيرتي؟

أردف (أحمد):

ـ ذَهَبْتُ إلى صاحب المحل الذي اشتريت الحوض والأسماك منه، وعَرَضْتُهَا عليه، فأخبرني أنها مريضة، وزعانفها المتآكلة دليل على مهاجمة بقية الأسماك لها بسبب مرضها، وإذا استمرت هكذا فستموت في غضون أيام قليلة.. ولكي نمنع ذلك، طلب منّي فصلها في حوض آخر وأعطاني دواء أقطر لها منه كل ثلاثة أيام في الماء خمس قطرات.

نظرت (ندى) لها بشفقة، فوجدتها تقف في جانب واحد متآكلة الزعانف والذيل.. ألوانها باهتة، تفتح فمها كثيرًا، وكأنها تصارع لتظل تسبَح على ارتفاع.. أشبه بمن خرج للتو من حرب جسور

سألت (ندى):

ـ منذ متى وهي على هذا الحال؟

أجابها (أحمد):

ـ بعد دخولك المشفى بيوم أو يومين.

تملكتها الدهشة، وقالت:

ـ هذا منذ أكثر من شهر.

أجابها (أحمد):

ـ أجل.

ساد الصمت الغرفة.. (ندى) باستغرابها ودهشتها، و(أحمد) بارتقابه لردة فعلها، وما كسره إلّا أنْ قال هربًا:

ـ سأذهب لأكمِل إعداد الشاي، حبيبتي.

لم ينتظر منها إجابة.. أما هي، فقد كانت كمن انعزل عن العالم، وهي تتطلع للصغيرة في حوضها تصارع، تَميل على جانبها الأيسر كثيرًا، راقبتها فوجدتها كمن ينتفض بين آنٍ وحينٍ.

ـ أي صراع هذا يا صغيرتي تحيين؟ ترى بم تشعرين؟ وبأي آلام تحترقين؟

تأملت حالها قليلًا، ثم سرحت.. كيف لسمكة مثلها أنْ تقاوم بكل هذا الإصرار.. المرض يَنهش فيها حتى أنَّ رفيقاتها أدركن ذلك وفي

سلوك عدائي صريح يصعب تفسيره.. أخَذُوا فِي إيذائِها، وهاجَمُوها لأنَّها باتتْ ضعيفةً، مُنهَكةً ، ظَنُّوها بِلا أملٍ، ؛حتَّى اقْتَطَعْنَ مِنْ ذَيْلِها أمّا هي فكانت تستحق الحياة، لذلك ظلت تكابر، وتعافر، وتقاوم المرض من جهة، وشراسة مَن حولها مِن جهة أخرى.

- كم أنتِ قوية يا صغيرة حتى تصمدي كل هذه المدة.. رغم أنَّ عدتك كانت أيامًا.. هذه قوة لا يُستهان بها يا (تشي).. إنها إرادة الحياة.

ثم لمعت في ذهنها فكرة.. أليست هي مثل (تشي)؟ ضعيفة، هزيلة، مريضة، قذفتها أمواج القَدر في طريق المرض؟ لكنها تختلف عنها بوجود الكثيرين حولها.. معها وليس ضدها.. الأهل والأحباب والصديقات.. ومعها (أحمد) سند، وظهر، وعضد تعتمد عليه، هي لا تواجه المرض بمفردها مثلها، بل وجودهم بجوارها أقوى دواء.

كم هي سهلة ويسيرة الحياة في وجود قلب صادق بجوارك.. قلب محب يهوى كل شيء منك.. حتى الضعف.. قلب شغوف ليس بخيال.. شخص يجدد فيك الآمال.. يصالحك على مهاترات الزمن، ويحميك من تقلبات البشر.

أدركت (ندى) أنَّ معركتها، وإنْ كانت شاقة وصعبة، لكنها رابحة برغبتها وإصرارها على الحياة.. أجل، رغبة الحياة فيها كما تفعل الأشجار.. قد تمرض وتتساقط منها الأوراقُ، لكنها تبقى صامدة، قوية، لا تتزعزع أبدًا، مهما كانت التقلبات من حولها والمنغصات.. ما نجاحنا في الحياة إلّا تخطِّي العقبات.

دخل عليها (أحمد) وفي يده صينية، عليها كوبان الشاي الساخن قائلًا لها:

ـ ها هو الشاي، لأجمل البشر.

قالت له:

ـ زجاج أم شجر؟

ثبت مكانه فهو لم يفهم السؤال، فأعادته مرة أخرى على مسامعه:

ـ أتعتقدني زجاجًا أم شجرًا؟

ابتسم لمّا أدرك المعنى، واقترب منها قائلًا:

ـ أنتِ لم تَكوُني أبدًا إلّا شجرة حب وعطاء.. أعلم أنَّ الألم شعور مرير، والحياة في ظله ثقيلة.. باردة ومقيتة، لكنكِ قوية جدًا، وما عهدتك إلّا كذلك منذ أحببتك.

قالت له:

ـ أتراهن على ذلك؟

أجابها فورًا:

ـ طبعًا، أنتِ كذلك، ولن نستسلم بمشيئة الله لهذا الشبح الأعمى.

نظرت إلى الحوض الصغير، وأشارت بعينيها إلى (تشي)، وقالت:

ـ مثل (تشي)؟!

أجابها:

ـ وأكثر منها.

تساقطت على خدها قطرات الدموع تجري سريعًا، تبحث عن مسارٍ لها، فنادى عليها:

- حبيبتي.

أدارت وجهها له، ثم ابتسمت، وهي تبكي بصمت:

- لن أستسلم كما تفعل (تشي)، وسأبدأ غدًا أولى الجلسات يا (أحمد).

احتضنها بقوة، من فرحته بقرارها، وقال في سعادة:

- سنهزمه حبيبتي، سنجعله يملّ، ويختار الرحيل بلا عودة.

أومأت برأسها موافقة.

ربت على رأسها بحبٍ، ونظر بامْتِنَانٍ إلى حيث (تشي) في حوضها الصغير، تصارع للبقاء على ذات الارتفاع.

حمامة السلام

كانت (سهيلة) ابنة الثلاث سنوات تلعب في الغرفة، وتُخرج كل ما في الدولاب من أغراض، وهي سعيدة، امتزج صوت ضحكاتها بتخبُّط الأشياء على الأرض سقوطًا.. انتبهت (سلمى)، وأسرعت إلى غرفتها فهالها المنظر.. كل ما كان في الخِزانة وطالته يد (سهيلة) على الأرض، تنهدت تنهيدة طويلة، وكتمت غضبها وهي تشاهد الصغيرة تفر منها إلى خارج الغرفة، في خطوات مضحكة، فقالت لها (سلمى):

ـ حسنًا (سهيلة)، سوف تُعاقبين بَعد أنْ أرتب ما أفسدته.

لم تعِرها الصغيرة اهتمامًا، وخرجت مسرعة، بدأت (سلمى) في تجميع الأغراض التي في أغلبها أشياءً لا تستخدمها.. منها أحذية جديدة، بعض المفارش، والحقائب القديمة، بدأت في ترتيبهم كلٌّ في صنفه، حتى سقطت من إحدى الحقائب محفظتها القديمة، جلست على الأرض وابتسمت، وقد أمسكتها بحرص، قديمة هذه المحفظة منذ أيام الخطوبة، كانت هدية من (عاصم) لها منذ أكثر من ثلاثة عشر عامًا، فتحتها وبحثت فيها، فوجدت ورقة من فئة المائة جنيه، كَتب عليها (عاصم) كلمة واحدة

من أربعة أحرف.. «أحبك»، وذيَّلها بتاريخ اليوم الموافق يوم الثاني عشر من مايو من العام السادس بعد الألفين ميلاديًا، يا لتذكارات الخطوبة بفحواها الجميلة، لم تغادر هذه العملة المحفظة منذ ذلك اليوم، وضعتها وأكملت بحثًا، فوجدت مجموعة من الكروت القديمة، وقع بصرها على أحدها فأخرجته، وأمسكته بكلتا يديها، وهي تتذكَّر الاسْمَ.. الأستاذ (محمد سعد) المحامي بمحكمة الأسرة، يا لهذا الرجل ما أعظمه! مرت أكثر من خمس سنوات على تعرُّفها به هي و(عاصم)، تنهدت تنهيدة حزينة وهي تتذكر تفاصيل لقائهما به، فقد جعله الله ـتعالىـ حمامة السلام التي أنقذتهما من ظلام الدمار والانفصال، تذكرت يوم التقت (درة) صديقتها تشكيها تغيُّر (عاصم) بعد شهور من الزواج، وتصاعُد حدة الخلافات بينهما، فأعطتها صديقتها عنوان شيخ يساعدها في عمل رقية لها ولزوجها والبيت، ذهبت إليه، ورغم الشك والريبة اللذَيْنِ دخلا قلبها من أول وهلة من الرجل ومكانه، فالمكان تنتشر فيه رائحة البخور القوية والدخان، والجدران تعلوها رسومات غريبة وأكف ملطخة بالدماء، وهيئته أيضًا أثارت فيها الفزع والخوف، بجلبابه الأسود، والعُقود، والخَوَاتِم التي يرتديها، وأسنانه المتساقطة، ثم بحديثه لها لمّا طرحت عليه المشكلة، فقال لها إنَّ هناك سحرًا أسود، صُنع لها ولزوجها ليتفرقا، رغم كل ذلك تناستْ الريبة والشك ولمْ تتراجع، واستجابت لطلباته من المال والملابس وحتى الأثاث، يا لغبائها.. صدقته في كل شيء، حتى يوم طلب منها إحضار بعض الأثاث لحرقه، متحججًا بأنَّ السحر يقع فيه، ولن يبطله إلّا النار، صدقته طمعًا في السكينة التي لم تَحصل عليها، بل على العكس، أصابتها نوبات هستيرية، وحالات شديدة من الإعياء، وفي كل

زيارة له كان سعير الخلافات بينها وبين (عاصم) يزداد، وإذا ما عادت تُخبره بأجيج الخِلافات، كان يبرر لها أنَّ السحر عليهما قوي، ويحتاج الكثير حتى يُقْضَى عليه، ترهات، كيف صدقتها؟! يا لغبائها، تظن بنفسها أنها ظلت لأعوام مُغيبة عن الوعي، فلمّا وصل بهما الحال من الشِّقاق إلى الطلاق والانفصال، وضاق (عاصم) بكل ما حدث ذعرًا؛ أشارت عليها زميلتها في العمل أنْ تستشير الأستاذ (محمد سعد) فعوضًا عن أنَّه محام مُخضرم في محكمة الأسرة، هو أيضًا عضو في مركز كبير للاستشاراتً الأسرية، فلما ذهبت إليه، شكَّ الرجل في روايتها، وبدأ البحث خلف ذلك المشعوذ الدجال، وهاله أنَّ (سلمى) لم تكن أوَّل ولا آخر ضحاياه، وحتى يثبِت لها بالدليل القاطع أنَّ الرجل مشعوذ كذاب.. ذهب إليه وطلب معونته في مشكلة افتعلها، فكانت كلمات المشعوذ بذات التكرار، وبنفس المطالب التي طلبها من قَبل من (سلمى)، وأُسْقِطَ في قلبها كيف عاشت ثلاثة أعوام فريسة لكذب وافتراء مشعوذ دجال! وكيف استغلها حتى أوصلها وزوجها إلى حافة الانهيار؟!

ولكن الحمد لله، فعناية الله ـتعالىـ أنقذتها من أيادي الغدر والتدليس.. وبالفعل تم القبض على ذلك المشعوذ وزَجِّه في السجن جزاءً لأفعاله السوداء، والتي دمَّرت الكثير من البيوت.

تنهدت مرة أخرى (سلمى)، وهي تتذكر الأستاذ (محمد سعد) يوم قال لها:

- سيدتي، لم يكن يومًا خروج الخلافات من المنزل حلًا لها، وإنْ كنتِ تطلبين السكينة والوئام، فاطلبيها بالقرب من الله ـتعالىـ وبلذائذ الذكر والقرآن.

ومن يومها.. أخذت كلماته خيمة تظلل بيتها بها، فملأه الراحة والسعادة، وفاض فيه الحب والأمان.

الفوضى

فتح (عمر) باب العمارة وخرج في هدوء.. ذاهبًا إلى عمله، ركب سيارته ثم تنهد تنهيدة قصيرة.. وهو يشاهد قطرات المطر على كل زجاج السيارة، وبالذات الأمامي منها.

قال في نفسه:

- العم (منعم) لم ينظِّف السيارة اليوم بسبب الأمطار.

فقد اجتاحت القاهرة الليلة الماضية موجة قوية من الأمطار استمرت لساعات.. وما زالتْ احتمالية هُطوله قائمةً؛ لذلك فضَّل العمّ (منعم) الانتظار.. هكذا قال لنفسه، وهو يحرِّك سيارته وينطلق، شاهد الشوارع مرتبكة أكثر وأكثر.. فتح المذياع على موسيقى هادئة لـ(عمر خيرت).. كم يُحب هذا الرجل.. يشعر أنه جاء بموسيقاه من درب آخر.. وكأنه سافر لمجرة مختلفة، ثم عاد وفي يده النُّوتة الخاصة بها.. نظر (عمر) أمامه فشاهد الارتباك في المرور.. تكدُّس السيارات على كوبري السادس من أكتوبر في طريقه إلى عمله بالقرية الذكية.. الكل يريد التحرك للأمام.. والازدحام شديد.. السيارات تتداخل مع بعضها البعض.. ذاك يريد

اليمين، وذاك يريد اليسار، أحدهم خرج بنصف جسده من النافذة وراح يصيح، وآخر يعلو منه بوق السيارة.. تنهد (عمر) تنهيدة صغيرة، وقال بصوت مسموعٍ:

- فوضى.

أجل.. فوضى أحدثها المطر.. فوضى يعلم بها الجميع، الكل كان على دراية بأغلب ما هم فيه الآن، منذ اتخذوا قرارًا بالخروج من منازلهم، فموجة الأمطار كانت شديدة، وهطولها باستمرار زاد الوضع سوءًا، ناهيك عن حالة مصارف المياة في الشوارع والطرقات، التي تجعل القاهرة تغرق ـ في شبرٍ من المياه ـ كما يرددون.. فشبكة التصريف على أسوء ما يكون، وكل ما يفعله المسئولون كل عام، التصريحات القوية المتوعِّدة للمقصرين بالعقاب والحساب، والتأكيد على تدارك هذه الأخطاءِ وتلافي حدوثها مرة أخرى.. ثم.. كما هو الحال كل عام.. الوعود تتبخر، ولا شيء يتغير حتى أسماء الموظفين والمسئولين الكبار، أما إذا حدثت كارثة، فكالعادة.. الموظفون الصغار هم كبش الفداء.. استيقظ (عمر) من حالة السرحان على هاتفه يرن.. تأمَّل المشهد أمامه من زجاج السيارة.. لم تتحرك أي سيارة من مكانها قيد أنملة.. أمسك الهاتف، وأجاب:

- ألو، أين أنت يا (عمر)؟
- في الطريق.
- كل هذا في الطريق؟!
- ماذا أفعل يا (فهمي)؟! المطر أغرق كل شيء، واستحالت معه حركة السيارات.

- لماذا لم تنزل مبكرًا؟ ألا تدرك أنَّ الاجتماع تبقَّى عليه نصف ساعة.. أين أنت بالضبط؟
- على كوبري السادس من أكتوبر.. والازدحام شديد.
- ماذا أفعل أو أقول أنا للعميل؟
- استقبِله، وأخبِره بظرفي، وأنا سأعتذر له حالما اصل.
- حسنًا.. حاول أنْ تنجز وتحضَر سريعًا.
- إن شاء الله.
- مع السلامة.
- في أمان الله.

وضع الهاتف في شاحن السيارة، وعاد للتنهد مرة أخرى، ولكن هذه المرة بغضب.. الاجتماع مع هذا العميل كان يحضِّر له من ثلاثة أشهر.. سوف تكون صفقة كبيرة له إذا ما أقنعه بالشراء.. وسيحصُل منها على علاوة كبيرة أو ترقية.. ولكن كيف سيكون كل هذا بمثل هذا التأخير؟!

حدَّث نفسه:

- فوضى، أدفع أنا ثمنها الآن.

ثم استوعب للحظة.. أنَّ الفوضى أساسها التغيير.. الأشياء تظل على حالها محتفظة بكيفيتها وروتينها حتى يطرأ عليها ما يَصْنَعُ فيها تغييرًا ملحوظًا.. وما أحدثه المطر تغييرًا كبيرًا ليس في وقته ومجريات يومه فحسب.. بل في حاضر ومستقبل كثير من الناس، قد تكون التغييرات إيجابية كمَن أنقذه هذا التأخير من حَدَث سيء أو أمرٍ ضار، وقد تكون سلبية، كالذي تأخَّر عن عمله اليوم وبسبب ذلك سيُطرد! وكالطبيب الذي تأخر عن مرضاه فكان الثمن من عافيتهم! والطالب الذي تأخر

عن مدرسته أو جامعته، ودفع ثمن هذا التأخير! فوضى أحدثت تغييرات وليس تغييرًا واحدًا، فوضى مزعجة بأحداثها وما ترتَّب عليها من نتائج من جهة.. غيْر أنها من زاويةٍ أخرى فوضى جميلة، يعترف بها الجميع، مَن مِنَّا لا يحب المطر؟

فجمال السماء وقت نزوله صَنع أساطير خرافية تحمِلها ذخاته كلما لامست الأرض، كأنه يأخذ مِنَّا الألم والوجع والهموم ويدفنها بعيدًا عنّا.. و يُخْرِجُ في ذاتِ الوَقتِ أحاسيسنا بعطره الفوَّاح الذي يملأ الأرجاء.. رائحته تلك التي تنادي خلايانا بالدفء والأمان.. تنهد (عمر) ثم ابتسم لما تذكرها.. طيف وجهها وعبير عطرها.. شعرها الأسود الطويل المنسدل على كتفيها..وبريق عينيها المسافر في دمه..أليست (نيفين) كالمطر؟! المطر يُحْيِي الأرض والناس، وهي كذلك، أحيت قلبه، وأغرقته في عشقها.. تذكر أول نظرة.. لذة الطمأنينة والراحة.. الخجل في مُحيَّاها.. روحها التي صارت له قَصرًا، يتمتع فيه بكل سحر ودلال..كيف صَنَعَتْ له طقوسًا لم يعرِفها قبلها؟!.. فصار قلبه يرجف لذةً كلمَّا رَآهَا أو سْمِعهَا؟!.. تمامًا كالغارق تحت المطر..

- أجل، حبيبتي كالمطر.. أحدثتْ فيَّ فوضى جميلة.. فوضى الأحاسيس الفياضة.. بين الشوق واللهفة..أشبه بفوضى القطرات على جدران الزجاج والسيارات.. حمَلت قلبي لعالم جميل..البستنى فيه سحراً، فما عاد يَحيا إلا بها.

يدرك بأنها أكبر تغييرًا طرأ على حياته.. وبملء إرادته استسلم له واختاره، واكتفى به.

أمسك الهاتف مجددًا، ورفعه على أذنه، وطلب الرقم.. سمع صوت الجرس مرة، ثم في الثانية التالية أتاه صوتها:

- ألو.
- حبيبتي.. هل استيقظتِ؟
- منذ قليل.. كنت أمسك حالًا الهاتف لأطمئن عليك.. ولكنك كالعادة سبقتني بالاتصال.

ضحك قليلًا من كلامها، ثم قال:

- أنا بخير الحمد لله، لَكِنَّني لم أصل، فالمطر صنع ارتباكًا وازدحامًا غير معتاد.
- يا ربي.. وماذا عن الاجتماع؟
- (فهمي) سوف يستقبل العميل، حتى أذهب إليه بإذن الله.
- خير حبيبي، إن شاء الله ستنفرج الكربة، وتصل سريعًا.
- إنْ شاء الله.

ثم ساد الصمت لدقيقة بينهما، حتى سمعت صوته يناديها:

- (نيفين).
- نعم حبيبي.
- أحبكِ كما أحب المطر.. أحبكِ بعدد قطراته.
- وأنا أحبك كما الغيمات التي تأتي لنا بكل المطر.

ثم ضَحِكَتْ ضحكتها الساحرة التي جعلته يبتسم.. أغلق الهاتف، وعاد يتابع الطريق الذي ما زال ساكنًا.. تابعه بهدوء وفرح.. فمهما كان.. هذا صنيع الفوضى.. صنيع الحب والمطر.

أشياء لا نستطيعها

صعد (كمال) الباص عائدًا من عمله، كان الباص مزدحمًا كالعادة، قطع التذكرة، وبالكاد وجد مكانًا يقف فيه بين أكوام البشر المتراصة بجانب بعضها؛ شعر باختناقٍ من اختلاط رائحة العرق والسجائر والأنفاس، وضيق المكان.. ولكن ما باليد حيلة، فعمله في مصنع الغزل والنسيج لا يُدِرُّ عليه إلّا القليل، وهو من أسْرةٍ تتأرجح بين خط الفقر والستر، لم يحظَ يومًا برفاهية أنْ يركَب سيارة خاصة، تمتم من بَعد هذا الخاطر.. «الحمد لله».. جال بعينيه بين الركاب، فبعضهم يغادر، والآخرون يرتِّبون أوضاعهم من بعدهم، شاهد رجلًا عجوزًا كاد أنْ يسقط على الأرض من التدافع، ورَأَى أحدهم وهو يحاول الالتصاق بسيدة تحمِل أغراضًا، فما كان منها إلّا العويل والصراخ، وقذفِهِ بأبشع الألفاظ حتى شدَّت انتباه الناس فبدءوا بالصراخ فيه، ودفعه بعيدًا عنها.. مشهد يتكرر، اعتادت عليه عينيه، اختلس النظر من النافذة، ها قد اقترب من المنزل؛ دفع الركاب بحذر حتى وصل للباب، وما أنْ توقَّف الباص حتى قفز سريعًا، قبل أنْ تدفعه أكوام البشر، وكأنها تلفظه من حقل النار، أشعل

سيجارته، وصعَد درجات السلم المتهالكة، وكلما اقترب من باب الشقة، اقترب صوت أحاديث أهل الدار.. أمه وأخوته، فتح الباب فوجد المشهد كما كان يتخيله.. أمه الغالية بجلبابها البسيط، و(عادل)، و(منى) أخوته، (عادل) ما زال في الجامعة، أما (منى) فهي في الشهادة الإعدادية.

ـ مساء الخير يا أمي.

ـ أهلًا يا ولدي.

قالتها باقتضاب.

أدار (كمال) عينيه بينهم، ففهم أنَّ هناك خطبًا ما.

ـ ما بكِ يا أمي؟ ماذا جرى؟

ـ ابن عم أبيك، الحاج (فؤاد) سيزوِّج ابنه (مدحت) غدًا.

ـ لماذا؟

ضحك (عادل) و(منى) بصوت عالٍ، فرمقتهما الأم بنظرة نارية، ثم أدارت وجهها لـ(كمال)، وقالت:

ـ ما هذا السؤال يا (كمال)؟

ـ لا يا حبيبتي لم أقصد، ولَكِنْ تعجَّبت من أهمية الخبر.

قالها وهو يغمز لـ(عادل) و(منى) بسرعة، فكتما الضحكات سريعًا عن وجه الأم.

ـ أخبرتني بذلك (سنية) زوجته منذ قليل، وقالت أنَّ الزفاف ليلًا، وعَقد القَران بعد صلاة الظهر، لذلك علينا السفر الآن.

ـ ماذا؟!

قالها متفاجئًا.. فالفجر لا يفصلنا عنه غير سويعات.

استطردت الأم:

ـ أجل، لا مجال للتأخير حتى نَحضر الاحتفال من أول اليوم، سنقضي الواجب، ونعود في ذات اليوم.

تنهد تنهيدة انزعاج، فهذا يوم الخميس، وغدًا يوم الجمعة، يوم الإجازة الوحيد في الأسبوع.. بهذا الشكل سيقضيه سفرًا مِن وإلى أسيوط.. ياالله!

أكملت الأم:

ـ سأرتدي ملابسي، ونذهب أنا وأنت.

ـ حاضر يا أمي.

لم تنتظر أنْ تسمع منه الإجابة، فقد نهضت، ودلفت غرفتها سريعًا.

جلس (كمال) على الأريكة ينفخ ما تبقَّى من السيجارة، ويفكر في هذا المشوار المفاجئ، فمنذ وفاة والده لم يذهب هناك.. كان في التاسعة من عمره لمَّا غادرها للقاهرة، تطلَّع بنظره إلى (عادل) و(منى)، وقال لهما:

ـ كونا على قدر المسئولية.. لا خروج من المنزل نهائيًا، ولا خلافات.

أومآ برأسيهما بالموافقة، غير أنه كان يعلم أنهما لن ينفِّذا ما أشار به.

خرجت الأم مرتدية رداءها المعتاد، لم تشترِ غيره منذ سنوات، وكلما خرجت ارتدته، نظر لها (كمال)، وقال في نفسه:

ـ بِئسًا للفقر.. «لو كان رجلًا لقتلته».. مقولة «عليّ بن أبي طالب» ـرضي الله عنهـ.. لكنت قتلته بيدي، وليس بالسيف يا إمام.

أوصت الأم الأخوين، وتركت لهما القليل من المال، وأشارت له ليغادرا المنزل.

ركبا الباص للموقف حيث سيارات الأجرة، وصلا موقف (عبُّود) فانتقى (كمال) سيارة كان صاحبها رجلًا طاعنًا في السن، دار بينه وبينه فصالًا على الأجرة، واستقر على تسعين جنيه، أدخل أمه سيارة (البيجو) وجلس بجوارها، انتظرا بعض الوقت حتى امتلأت السيارة، وتحرك بهم السائق في رحلتهم الطويلة إلى أسيوط.

السفر ليلًا كان سببًا لتنام أمه على كتفه، بينما كان ينبش هو في ذاكرته عن أسيوط، مَسقط رأسه وعائلة أبيه التي جافتهم بعد وفاة والده شابًا، تذكَّر يوم وفاته، وخلافات أمه معهم، ومعاملتهم السيئة لها، حتى أنها آثرت تربيتهم في هدوء، والرحيل بهم بعيدًا عن هذه الأجواء المشحونة، رغم ضيق الحال، ومع ذلك لم تَقطع الرحم، وظلت على اتصال بهم، ودائمًا ما كانت تطلب من (كمال) وأخوته ودهم، لأنهم في الأصل أهلهم، مهما حدث، ومهما كان.

مع اهتزاز السيارة المستمر، أخذت عيناه قرارًا بالنوم، ولكن ظلت الذكريات تطارده من الزوايا البعيدة المنسيَّة، وتتسرب معها لصدره، فينقبض قلبه بالحنين والأوجاع لمواقف يتذكرها.. ظل هكذا حاله حتى انقضت الرحلة ووصلوا، فالسائق المُحنك سلك طريق الجيش، فاختصرعليهم الساعات، ووصل لبيت الجدّ الذي يقع بالجوار من محطة المطافئ الخاصة بالمدينة الهادئة فجرًا.. المنزل مكوَّن من طابقين، كل طابق على الطراز القديم من الأسقف العالية، والشبابيك المرتفعة، والجدران المتآكلة.

دخلا المنزل فاستقبلهما أبناء عم والده، وبعض من الشخصيات التي يجهلانها، كان اللقاء فاترًا، يتناسب مع الجفاء الذي اتخذ من قلوبهم مأوى له.. جلس (كمال) ووالدته بين الحضور، دار بعينيه خِلسة في ربوع الدار، فسرَت قشعريرة حنين هاربة من تِلكم الأكوام التي نبتت في صدره.. هنا كان يلعب مع أبناء عمومته، وهنا جلس أبوه.. كل شيء في المنزل ظل كما كان، لم يتغير، ترى هل يتذكره المنزل كما يتذكره هو؟!

قال الحاج فؤاد:

ـ هيا يا بُني لترتاح أنت والوالدة قليلًا.

وأشار إلى أحدهم ليرافقهما للطابق العلوي، قال (كمال) في نفسه:

ـ الحمد لله، أنه شعر بحاجتنا للنوم.

صعدا درجات السلم، وكلما صعدا درجة، كان أزيز الخشب فيها يئن من حِمل الزمان، ومرارة الأيام.. قطعا مع مرافقهما الردهة الطويلة، ولما وصلا لأول الغُرف، أشار للأم، وفتح لها الباب، فدخلت لترتاح قليلًا، وتنام، ثم أشار إلى (كمال) بغرفة على اليسار، فأومأ له شاكرًا، واتجه لها، وفتح الباب ودخل.

كانت الغرفة رثَّة الأثاث، تعلوها بعض الأتربة، تذكرها من الماضي البعيد.. الفراش القديم، والمكتب المتهالك، وصوان الملابس المكسور ذو الباب الواحد المستند على الجدار، لكن جُل ما خطف عينيه وعقله، كانت اللوحة المعلقة على الجدار تحت الفراش.. لوحة «الطفل الباكي» الشهيرة، تلك اللوحة التي رسمها الفنان الإيطالي (جيوفاني براغولين) والتي لاقت انتشارًا واسعًا، في ستينيات القرن الماضي، تذكرها، وتذكر أنه كان ينام في هذه الغرفة وهو صغير كثيرًا، اقترب منها، كانت يعلوها

التراب قليلًا، ربما لم تُنظف جيدًا كباقي الأثاث، أكثر من عشرين عامًا، لكنها لا زالت كما هي.. الطفل الصغير بملامحه الحزينة.. بكائه ودموعه المتساقطة، مشى بيده على شعره؛ شَعَرَ بنعومة ملمسه، عينيه الزرقاء اللامِعة، والدموع المرسومة أحسها دافئة.. هز رأسه وقال بصوت عالٍ:

ـ تهيؤات.

رمى بجسده على الفراش، وهو يقول:

ـ كفاني تخيلات.. عدم نومي، والمشاعر المختلطة، دفعت بي لسرداب الهذيان.. لأنم قليلًا.. لا بد لي من الراحة قبل صخب الاحتفالات.

ما أنْ أغمض عينيه، حتى سمع صوتًا يقول:

ـ ستتركني وتنام؟!

فتح عينيه بفزع وأدارهما في الغرفة.. لا يرى أحدًا فيها غيره، ولكن الصوت كان حقيقيًا.. أغلق عينيه مرة أخرى فجاءه الصوت واضحًا وضوح الشمس في النهار:

ـ أرجوك، لا تفعل.

سقطت دمعة على قميصه، فرفع بصرة للوحة والصغير والدموع المتساقطة منه، نهض (كمال) سريعًا، غير مصدِّق.

ـ أنت حقيقي؟!

ـ .....

ـ أأنتَ فعلًا؟! ... أنتَ..

ـ أرجوك لا تفعل.

ـ أأنتَ تتحدث؟!

- لا تتركني وتنام.

أكل الصمت شفتيه في لحظة، من هول ما رأى، عيناه تتحرك باتجاهه، والدموع تتساقط منه.. جاءه الصوت من فَم الصبيّ:

- كم تمنيت أنْ يَحضر أحدهم ويحدِّثني!
- مَن؟
- أي أحد.
- لماذا؟
- تَعبتُ من الصمت.
- هل كنتَ تتحدث قبلًا؟!
- أجل.
- لم تكن، لقد كنت منذ زمن أبِيتُ في هذه الغرفة، ولم أكن أسمع لكَ صوتًا.
- أعلم.. وقتها البيت كان مأهولًا وأنتَ كنت صغيرًا، فلم تكن لتسمعني أما الآن.. فأنا وحيد.

اعترى (كمال) الهدوء قليلًا، وجلس على حافة الفراش، رافعًا بصره له، وقال:

- أتعلم مَن أنا؟
- أجل، أنت (كمال).
- يا للهول!
- لا تستغرب، لم يكن أحد أقرب لي منك يومًا.
- كيف هذا؟

- منذ جئت لهذه الدار لم يشدّ انتباهي أحدٌ مثلكَ، رأيتُ فيك الكثير مني، فتابعتُ كل أحَادِيثَكَ وتَحَرُّكَاتَكَ، وحزنت كثيرًا عندما رَحَلْتَ.
- لا أصدِّق.
- لمَ التعجب الآن؟
- لا أعلم ما الذي تقوله.
- الحقيقة، يا صديقي.
- إذًا، أنتَ حقيقة؟!
- ألا تراني أحدِّثك؟ ودموعي تتساقط على ثيابك؟
- أجل، لِمَ هي تتساقط باستمرار؟ إنْ كنتَ حقيقيًا، كف عن البكاء.
- لا أستطيع.. فأنا للأسى والحزن عنوان، جُبلت على ذلك.
- حقيقي، وليس لك اختيار؟!
- أجل.. مثلك.

اعتدل في جلسته (كمال)، وأخرج علبة الدخان، وأشعل سيجارة منها، وقال له بانفعال:

- مثلي!! كيف؟!
- هل تملك أنتَ الاختيار؟ تأكل وتشرب وتتحرك، ولكنك كالدُّمى في لعبة الحياة، لا تستطيع أنْ تَخرج عن مسارك، وإلّا تَحَطَّمْتَ.
- من قال ذلك؟! نحن البشر لنا كل الاختيارات.
- لا تخدع نفسك.

ـ لا أخدع، هذه الحقيقة، نحن من نَصنع عالمنا بإرادتنا.
ـ إذًا، أخبِرني ماذا صنعت لنفسك؟
شرد قليلًا في سؤاله:
ـ ماذا صَنَعْتُ فعلًا لنفسي؟ فمنذ أدركتُ، وأنا في دوامة الفقر والمسئولية، نحو أمي وأخوتي، وها أنا على أعتاب العقد الثالث من عمري، ولم أملك يومًا إرادتي.. لا في دراستي، ولا حتى عملي، يا للسخافة، حتى اليوم لم أملكها لحظة فَرَضَتْ أمي عليَّ هذا السفر.
قال الصبي:
ـ شردتَ في الإجابة التي لا تملكها.. لا عليك.
رد (كمال) هربًا:
ـ اخبِرني لِمَ قُلْتَ أنَّكَ للحزن عنوان؟
ـ القصة مثيرة يا (كمال).. لمَّا شاهد (جيوفاني براغولين) صبيًا بملابسه البالية، يبكي على الأرض وحيدًا، فاستضافه وأطعمه وسقاه، ورغم كل ما صنعه معه ظل الصبي حزينًا باكيًا باستمرار.. فقرر (جيوفاني) أنْ يصوغ هذا الشعور العميق مِن روح الصبي لوحةً تبوح به.. وقد كان.
ـ أهذا سر شهرتك، وانتشارها الواسع؟!
ـ الصدق يا (كمال) سرها.
ـ أظُنُّكَ أوجزت.
لسعهُ لهيب آخر السيجارة؛ كان مندمجًا في الحوار حتى نَسِيَهَا، ألقاها من يده على الأرض في توتر، واستدار له قائلًا:

- ولَكِنْ سمعت عنها الكثير من الروايات.
- مثل ماذا؟
- قيل إنها كانت تتسبب في احتراق كل بيت تدخله بعد أوان.. حوادث اشتعال غريبة في العديد من البيوت في شتى أنحاء أوروبا؛ حتى بيت (براغولين) نفسه لم يَسْلَمْ، والعجيب أنَّ اللوحة كانت الشيء الوحيد الناجي في كل مرة.
- ترهات، يُخْرِجُهَا البشر من جعبتهم كلما أرادوا إثارة.
- كيف ذلك؟
- يصنعون الأساطير من أشياء يصعُب عليهم هزيمتها، فيتواطئون بالأخبار والأحاديث، وكأنما كوارث العالم لا تكفيهم.
- لا أفهمك.
- اللوحات يا (كمال) مطبوعة على ألواح عالية الكثافة، يصعُب اشتعالها.. ألم أقل لك أنكم تجيدون التهويل والمبالغة.
- ماذا عَنْكَ؟ أليست دُمُوعُكَ المُنْهَمِرَةُ منذ عقودٍ تهويلًا ومبالغة؟!!
- أخبرتك يا صديقي من قَبل ليس لي اختيار.

وصلا لذات النقطة في الحوار، فساد الصمت، ولم يقطعه غير قول (كمال):

- قلت من قَبل أني أعنيك، ورأيتني أشبهك.
- أجل، كنت تلهو وتلعب مثلما كُنْتُ أفعل، وكأنَّ لا يعنيك العالم المارق حولك.. أظنها كانت أجمل أيامك يا صديقي، أليس كذلك؟

رد عليه متعجبًا:

- أجل، كيف عَرِفْتَ؟!
- كُنْتَ تنضح بالطهر والبراءة والفرح، كحال كل الأطفال،غير أنَّ للحزن علامات لا تُخطأ، رأيتها في كينونتك وقتها

لمْ يُعلِّق (كمال)، فأردف الصبي:

- حياتك منذ نشأتك أقرب للتعب، أَخَذَتْكَ من دون وعي إلى مدارات ربما لم تَعْرِفُها، وكان عَلَيْكَ الاستمرار فيها فرضًا، ربما امتدت بك نحو الفرح أحيانًا، وتصدَّعت منها وجعًا اوقات، لكن يبقى ضجيج أعماقك وتفاصيلك، هي جذرك الباقي للحياة
- فيسلوف صغير.
- لا، ولكن لغتنا مشتركة، وأرواحنا معلَّقة على ذات الباب.
- أتخبرني أنَّ مصائرنا متشابكة؟ ماذا عني، ألن أخرج من هذه الغرفة؟
- ربما!

ضحك (كمال) في سخريةٍ، وقال:

- هل سأصبح سجين لوحة مثلك؟
- رغم الانحناءات والانكسارات والتجاعيد التي أصابتك فكبرت قبل الأوان، لَكِنْ أراك أكثر نضارة مني، ربما لا يا (كمال)
- كيف ذاك؟
- تَهَوَّرْ.. ابتعد عن الفناء.

لم يفهم، فأردف له الصبي مجددًا:

- لا تنطفئ، ولا تَسْقُطْ فريسة الاكتفاء، عانق الحياة بتفاصيلها واصنع جِنَاحَيْكَ، ما يصنع الفارِق هو إنفلاتك الأعمق في اللحظة المناسبة، دع عنك الخوف، فقد أنهك عينيك يا (كمال).
- ألم تقل آنفًا أنَّ لا اختيار لنا؟
- من أراد التحرر، استطاع.
- ولكنك لم تقل ذلك؟
- لكل قاعدة استثناء، إنْ أرَدتَ، خرجت من الحريق بلا رماد.

بَرَقَتْ عَيْنَاهُ لما نطق الحريق، فرفع (كمال) صوته قائلًا:

- ها أنت تتحدث عن الحريق، قد لا يكون كل ما قيل عنك أكاذيب.

ابتسم الصبي قائلًا، وهو يبكى، والدموع تتساقط منه في اعتياد:

- (كمال) لا تصدِّق كل ما يُقال لك، صدِّق قلبك، وما يُخبرك به، وتَذَكَّرْ.. أنت لا ترى من الآخر إلّا ما يُرِيدُكَ فقط أنْ تراه.

فتح (كمال) عينيه فإذا بأمه فوق رأسه تهزه بشدة، وهي تردد:

ـ استيقظ يا بني.

نظر لها باستغراب، ونهض رافعًا بصره للوحة، فإذا بها كما هي.

ـ ربما كان حلمًا..

هكذا قال لنفسه..

قاطعه صوت أمه، وهي تقول له:

ـ هيا يا بني انهض، لتستحم، وتغيّر ملابسك، فقد اقترب موعد عَقد القَران.

نهض، وطبع قُبلة على جبينها، وقال:

ـ حاضر يا أمي.. هيا بنا.

تحرَّكا يغادران الغرفة، خرج (كمال)، وثيابه يعلوها الرماد، وتنبعث منها رائحة الدخان.

الكاتبة في سطور

مروج سمير على صالح

- كاتبة وقاصة مصرية من مواليد المملكة العربية السعودية
- حاصلة على بكالوريوس علوم، قسم بيولوجي، جامعة عين شمس..
- شاركت في معرض القاهرة ٢٠١٩ في يوبيله الذهبيّ، في عدد من الكتب الأدبية:
- ديوان «حيثما كان قلبي» الصادر عن دار «كاريزما» للنشر والتوزيع.
- مجموعة قصصية «طريق اللاعودة» الصادر عن دار «كاريزما» للنشر والتوزيع.
- كتاب «قطوف وحروف» الصادر عن دار «اللوتس» للنشر.
- كتاب «غيمات حبر وحب» الصادر عن دار «اللوتس» للنشر.

- كتاب «همسات ولمسات» الصادر عن دار «اللوتس» للنشر.
- كتاب «حلم» الصادر عن مؤسسة «الموجز العربي».

لمتابعة أعمالها على الفيس بوك عبر حساب

http//www.facebook.com/moro.samir.56

إهداء	٣
نكهة القهوة	٥
السقوط	٩
النظارة الشمسية	١٣
اللوحة	٢١
أبادماك	٢٥
على قائمة الانتظار	٢٩
السَّجين	٣٥
عينان وأقدار	٣٩
ثلاث طلقات	٤٣
الدمار الذيذ	٤٧
من بيننا	٤٩

الخوف في عيون شابة	٥٧
أزمة بصر	٦٥
يوم الرحيل	٧١
(تشي)	٧٥
حمامة السلام	٨٥
الفوضى	٨٩
أشياء لا نستطيعها	٩٥
الكاتبة في سطور	١٠٩

كاريزما
للنشر والتوزيع